www.kotobarabia.com

قصص

الكرة تختفى فى الأعالى

www.kotobarabia.com

حسنى سيد لبيب

الكرة تختفي في الأعالي

قصص

حسني سيد لبيب

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

الإهداء

إلى زوجتي إلهام

وأبنائي: أحمد وإيمان ودعاء

أهدي كلماتي..

نبراسا يضيء معالم الطريق

فهرس

الإهداء ٣

١. الأولاد الذين سرقوا الكرة ٥

٢. الوهم والحقيقة ١٥

٣. الصديقان ٣٠

٤. صفية ٤٢

٥. الزمن ... والبرق... والفارس ٥٦

٦. عزف منفرد على أوتار الحب ٦٦

٧. الانتظار ٧٨

٨. قمر الحب ٨٨

٩. علاقة مـا ١٠٣

١٠. الطابــور ١٠٧

١١. إبهــام ١١٨

١٢. أبــي ١٢٤

١٣. ثلاثة مقاطع كروية ١٣٢

١٤. الكرة تختفي في الأعالي ١٣٧

١٥. هــو... .... ١٤٥

١٦. حدث في مملكة الحيوان ١٥٨

الأولاد الذين سرقوا الكرة

كان اقتراحا، ثم تنازل عنه وجلس في الشرفة. انبسطت أريحيته بأنسام الربيع الرقيقة، بعد زوابع خماسينية ساخنة دامت طوال اليومين السابقتين. ود لو توافق على اقتراحه، لكنه يعرف مدى صلابة دماغها. لن تتورع عن اتهامه بتضييع الوقت سدى، وتبديد المال دون طائل. " سيدة " زوج مخلصة، لولا ما يتسم به سلوكها من عصبية تظهر من وقت لآخر. مهمومة دائما بشغل البيت، ومتاعب العمل، ومطالب منى وطارق التي لا تنتهي. حين ينصحها بالاهتمام بنفسها، ترجعه إلى مشاكل البيت التي ما إن تفرغ من إحداها حتى تبدأ في أخرى.

أطلت منى من الشرفة، تجول بعينيها في أنحاء الشارع، وتدندن بأغنية وطنية تنشدها كل صباح مع زميلاتها في المدرسة، ثم رنت إلى أبيها وهو يطالع الجريدة. كان جهم الوجه قليلا. سألته:

- أنت زعلان يا بابا؟

ألقى الجريدة بعيدا. طوق ابنته بذراعه اليسرى، وضغطت أنامله ذراعها الرقيقة. انفجرت أساريره بابتسامة واسعة، وطبع قبلة على جبينها. سألته:

- ألا نخرج نشم النسيم.

- حاضر.. البسي أنت وطارق.

وهرعت منى بفرحتها الصبيانية تزف الخبر إلى أمها وطارق. فكر أبوها في أمر زوجته التي رفضت اقتراحه أول الأمر. هل توافق هذه المرة؟ لا يهم. يتركها في البيت، لن تعتب عليه. تأتي معه إذا شاءت. هذه رغبة منى وطارق، ولولاهما ما اضطر للخروج.

طلب منها ترك شئون البيت، فاليوم إجازة شم النسيم ولا بد من التنزه. و "الحياة ليست كلها شغلا" . عارضت متلطفة في هذه المرة. سأل طارق:

- أتشتري لنا كرة يا بابا؟

- فيما بعد.

لاحظت سيدة أن ياقة الجاكيت متكرمشة، وبسرعتها المعهودة بسطت الياقة بالمكواة في دقائق، بينما وقف سالم قبالتها بالفانلة الداخلية التي أبرزت كرشه المتكور.

لم يدبر سالم أمر هذه الرحلة المفاجئة، وكعادته دائما، وجد نفسه يجول بوسط البلد، يمسك يد منى بيمناه، ويد طارق بيسراه.. يمشي الهويني في شوارع تكاد تخلو من المارة، وأغلب الدكاكين مغلقة. جالت نظرات الطفلين هنا وهناك ثم دار بينهما حوار لطيف..

- تفتكري يا منى أين سنذهب؟

- الجنينة؟

- يا عبيطة. لا يمكن نذهب إلى الجنينة من غير ماما.

- ممكن نرجع ونقول لها تجيء معنا.

- بابا لن يوافق.

- يعني نتفسح من غير ماما.. طيب أنت تفتكر بابا ذاهب إلى أين؟

- السينما..

بابا يحب يدخل السينما بالليل.

يتابع سالم الحوار، ولا يتلفظ بشيء. إنه حائر لا يدري إلى أين يذهب.. المحلات على الصفين معظمها مغلق. خف زحام وسط البلد. أغلب الناس قصدوا الحدائق والكازينوهات

المطلة على النيل. لم تطل حيرته، حيث انعطف إلى كافتيريا جروبي المكتظة بالرواد.

ترك منى وطارق يلهوان كما يحلو لهما، وجال بعينيه عبر الوجوه المتناثرة في كل اتجاه. كان يبحث عن رجل مثله لا تشاركه زوجته هذه الجلسة الربيعية. أغلب الرواد من الشباب حديثي الزواج، أو على أهبته، اثنين اثنين، يخططان للمستقبل، منذ أكثر من عشر سنوات، جلس مع " سيدة " مثل هذه الجلسة. كانا حديثي التخرج، بعد زمالة جامعية تفهم كلاهما طباع الآخر، فتبادلا شعورا صادقا، ونجحا في الاستقلال عن أسرتيهما، وتأثيث بيت الزوجية معا. وغمر سالم حينذاك إحساس بالرضا، بينما شعرت سيدة أنها نجحت في اختيار الزوج المناسب. تنهد سالم تحسرا على هذه الأيام الجميلة. أفاقته هزة رقيقة من طارق.

- عايز أشتري كرة يا بابا.

قال مقطبا ما بين حاجبيه:

- فيما بعد.

أفاقه طارق من ذكريات الماضي، رده إلى الواقع. أصبح أبا. منى في العاشرة، طفلة جميلة، وغدا تكبر،

سرعان ما تكبر. ستتعاظم مسئوليته. وطارق في الثامنة، طفل ذكي، لكن الشقاوة في دمه، غدا يعقل. إنه أب مسئول. ولت أحلام الشباب، ولم تبق منها إلا ذكرياتها الجميلة.

لفت نظره وجه فتاة رائعة الجمال، بيضاء البشرة، صفراء الشعر، عيناها واسعتان، وشفتاها دائمتا الابتسام. وجه ملائكي حقا، لكنه وحيد، يجتر ذكريات الماضي. أيقظت أنسام الربيع الرقيقة أحاسيس سالم، وهذه الفتاة تتنفس مثله نفس الأنسام، هناك نوع من المشاركة إذن!

أطالت منى التحديق في وجه الفتاة. انجذبت الفتاة إلى منى. ابتسمت لها، وأشارت إليها:

- ما اسمك يا حلوة؟
- منى سالم.
- اسم جميل.
- متشكرة.. وما اسمك؟

اتسعت ابتسامتها لسؤال منى الطفولي:

- أيضا.. منى..

راقب سالم الحوار اللطيف. أراد أن يتدخل، لكنه تريث. أشارت ابنته بإصبعها نحوه وقالت للفتاة الجميلة:

- إنه بابا.. أطيب بابا في الدنيا.

سألت الفتاة:

- أين أمك يا منى؟

أجاب سالم متدخلا:

- تركناها لشغل البيت.

عاتبته الفتاة. أفهمته أن الأم تستطيع رعاية أولادها، سواء داخل البيت أو خارجه. وكانت فرصة مواتية لتجاذب أطراف الحديث. تناسى كل شيء. تكلم بفطرته رافعا التكاف، كأنه يعرف منى الحسناء منذ سنوات! طلبت عصير برتقال، فطلب مثلها نصحته بأن يقلل من كميات الطعام التي يتناولها ويبتعد عن النشويات، ويمارس بعض الألعاب الرياضية، فهناك أمل في إنقاص تكور كرشه، الذي يسبب له المتاعب. أنصت لحديثها. زوجته لم تنصحه بشيء. لم تذكر له خطورة هذا الكرش على حياته. حديث منى الحسناء ممتع. يشوقه سماع المزيد، ففي حديثها يتلمس أريج عطر جديد تنتشي به نفسه بعد طول جدب.

تأمل الطفلان المكان بعين الطفولة الفاحصة المنقبة، ثم أفاقا الأب من جلسته، وطلبا منه الرجوع إلى البيت. همست منى الصغيرة في أذنه:

- أزف موعد الغداء، وماما قاعدة لوحدها في البيت.

اضطر إلى الاستئذان. تناول ورقة الحساب، ودفع حسابه وحسابها. رفضت في البداية، لكنها إزاء إلحاحه قبلت شاكرة.

وفي رحلة العودة، سيطر عليه إحساس بالرضا، ولونت البهجة محياه، كأنه رجع شابا من جديد، ثم أطرق برهة، أثناء سيره حثيث الخطى، وتساءل إن كانت منى الحسناء مخطوبة أم لا؟ نسي أن يلاحظ إصبعها، كما نسي أن يسأل إذا كانت مرتبطة برجل! ونسي أيضا أن يسأل عن العنوان!

أفاق من شروده حين بهته منى الصغيرة إلى شقاوة طارق، حينذاك أيقن أنه لقاء عابر مع فتاة لا يعرفها.. حقا هي جميلة، وأنيقة. هفا إليها قلبه.. لكنه لا يعرفها! مجرد لقاء عارض، لن يقدم أو يؤخر شيئا.. أو هي لحظة سعادة عابرة اختلسها من عمر الزمن، ولن تعود. حين استرجع مرة أخرى حديثها معه عن صحته، وكيف يعتني بها، شرد

برهة، ثم أفاقه صوت داخلي بأنه أب. لا شك أن منى الصغيرة ستكبر، ستكون أجمل منها. خالجه إحساس بالزهو، يرسم ابتسامة صغيرة على شفتيه.

وفي البيت، التفت الأسرة حول مائدة الغداء. كثر حديث الطفلين عن رحلتهما القصيرة، بينما غرق سالم في صمته.

وبعد الغداء، رقد سالم على السرير ينشد الراحة، أغلق عيناه منتشيا بلقائه العابر بالحسناء الصغيرة، كأنه يحلم، يسترجع ما حدث في حرص بالغ. كان يوما جميلا حقا، وما أحوجه إلى مثل هذه السعادة.. و.. أفاقه من الحلم صوت طارق ومنى وهما يرويان لأمهما تفاصيل ما حدث. أفاقه الواقع من شفافية اللقاء الحالم. تقول منى بجرأتها المعهودة:

- تصوري يا ماما.. بابا دفع حساب أبلة منى.

امتقع لون وجهه، وتوتر بعض الشيء. كاد يهم بالنهوض، ويهرع إلى منى الصغيرة، ويسد فمها، وينفي ما قالت. لكنه أحجم حين أتاه صوت أمها الخفيض.

- أعرف أن أباكما قد يتورط بطيبته في مثل هذه الحماقة.

وتبدد حلم السعادة الذي داعب مخيلة سالم. لم يشأ التدقيق فيما قالته زوجته. اختفت صورة الحسناء من مخيلته، وتبدد الحلم الذي نسجته خيوط لقاء عابر، وصار سرابا يجب ألا يلهث وراءه، ودوى في أعماقه الصوت المضجر: " قد يتورط لطيبته " .. عبارة لا تطرب أذنيه، لكنها فرضت منطقها، فهب واقفا، قاتلا أحلام اليقظة. لقد ولي عهد الشباب. نادى على طفليه، وناولهما ورقة مالية وقال كمن يصدر أمرا:

- اذهبا واشتريا كرة كبيرة، والعبا.. وامرحا..

وحين همت الأم بالمعارضة همس:

- يجب أن يسعدا بأيام الطفولة.

- سيقلبان البيت رأسا على عقب.

- أحسن.

- أريد غرس روح الجدية والاتزان في نفسيهما منذ الصغر.

- دعي هذه الأفكار.. لا تعقدي الأمور.

وابتسم، ثم قال بعد فترة صمت كمن يراجع نفسه:

- كنت أتمنى أن أرجع إلى عهد الشباب!..

نظرت إليه " سيدة " في ارتياب، فأكمل عبارته:

- كنت أتمنى أن أرجع إلى عهد الطفولة، وألعب الكرة مع منى وطارق.

ركزت نظراتها الفاحصة على ملامح وجهه، ثم قالت:

- دعك من هذه الأفكار، فقد سرق الأولاد منا الكرة! هل يرجع الزمن إلى الوراء؟

تنهد في حسرة. شرد قليلا. صوت رقيق يتردد في أعماقه: "لقد عاد إلى الوراء لحظة حالمة خاطفة عشتها اليوم بكل جوارحي" ، لكنه أفاق من شروده وأكد لزوجته:

- نعم يا عزيزتي.. لقد سرق الأولاد منا الكرة!..

مجلة " الأديب " بيروت – أبريل ١٩٧٥

الوهم والحقيقة

تسكع في شوارع القاهرة. يزغرد قلبه بفرحة صبيانية لا يستطيع تكتمها. ود لو يتحدث مع أحد السابلة ويبوح بسر سعادته. لأول مرة يمتلك ثروة مالية كبيرة، زارت جيبه فجأة، على غير انتظار. ورقة ذات عشرة جنيهات تقبع في جيب جلبابه العلوي الصغير. أحس مرزوق أن الجيب يكاد ينتفخ. الحمل الذي ينوء به أكبر من طاقته التي لا تتعدى القروش القليلة، أو شلنات ثلاثة إلا لماما. عشرة جنيهات دفعة واحدة، يا لها من ورقة!.. كم شلنا تساوي؟ أجهد ذاكرته ومرنها على عملية حسابية، فأحس للوهلة الأولى أن الرقم الناتج سيكون كبيرا.. مائتا شلن.. يا للرقم!.. أجر أكثر من شهرين.

أمعن النظر في معروضات المحال الكبيرة. ألفى قميصا نصف كم. لم يتعرف على نوع القماش. خمن أنه حرير طبيعي. يشبه قميص الحاج فهيم. أجهد مخيلته في تصور

هيئته حين يرتديه، حتى تبدو عليه سيماء الوجاهة والأناقة. ستندهش حمدية حين تراه. لا شك أنها ستخطئه. لن تصدق أنه مرزوق زوجها. قد تعتقد أنه شبيه له، أو يصور لها خيالها المريض أنه من أفعال الجان، حتى تفي بالنذر الذي قطعته على نفسها!

لكن، أيصح أن يتطاول على الحاج فهيم ويرتدي مثل ما يرتديه؟. أيكون ندا له؟.. بوده لو يكون، لكنه مستحيل. مستحيل أن يكون.

تراجع عن شراء القميص. ابتعد خطوات عديدة عن واجهة المحل. تنازل عن الفكرة الطارئة تماما، وسار في طريقه لا يلوي على شيء بادرة ضيق تنتابه، إلا أن السعادة تغمره وتطغى على ضيقه. تعم كيانه فرحة جنونية أنسته ما كان يفكر فيه منذ لحظات. راودت مخيلته أحلام كثيرة، ود لو يشاركه فيها أحد.

زارت جيبه اليوم ثروة لا يحلم بها. لا بد إذن أن يتغير!.. أن يغير من عادته!.. ليس من المناسب أن يسير على قدميه من "السيدة زينب" إلى حيث تقبع حجرته المظلمة في زقاق ضيق بحي "القللي" .. قد تعود على المشي حتى

كلات قدماه. كثيرا ما كان ينتابه شعور بالملل وهو سائر أمام المحلات والمنازل الضخمة.

تمرق سيارات الأجرة بجانبه كالسهام. هم أن يوقف إحداها. سيدفع مبلغا محترما. لن يؤثر ما يدفعه على ما في جيبه. تصور ما يحدثه قدومه في سيارة أجرة من مفاجأة لا يتوقعها ساكنو الزقاق الضيق. سيتطلع إليه الجميع، يتساءلون.. إلا أنه تضايق، حين أدرك أن السائق قد يرفض دخول الزقاق الضيق.. معذور، يبدو أنه إذا دخل، لن يستطيع الخروج بسهولة. الزقاق لا يسمح بمرور السيارة إلا إذا احتك جانبها بجدران البيوت القديمة. قد يتسبب الاحتكاك في انهيار أحد الجدران، فيحدث ما لا تحمد عقباه!

هم بإيقاف إحدى سيارات الأجرة، إلا أن السيارة تجاوزته ولم تعره أدنى انتباه. اكتأب. لم يلتفت إليه السائق، أو أنه لم يحسن التقدير. عليه إذن أن يبرز العشرة جنيهات!.. جلبابه الرث ليس مشجعا، ولا يثير انتباه السائقين. تنازل عن الفكرة التي تشبث بها كطفل، خشية أن تتجاوزه سيارة أخرى. وعاود مسيرته المعتادة.

لمح سيارة ركاب مزدحمة فقفز إلى سلمها. أخلى أحد الواقفين على السلم موطئا لقدم واحدة. ثبت قدمه اليسرى وأمسك العمود المعدني بقوة خشية أن تزل قدمه. لم يمكنه الزحام من الوصول إلى داخل العربة، فقنع بوقفته تملى في الوجوه التي تكاد تلتصق به. كان يمعن النظر في وجوه الناس. التفت إليه راكب زاعقا:

- حاسب يا أخينا. لا تلتصق هكذا. أف. الدنيا حر.

راكب آخر ينهره:

- ابعد ذراعيك. يحلو لكم "التحشير" في الزحام !.. فرصة!

كان على وشك الصراخ لكن صرخاته لم تخرج من حلقه. احتبست في أعماقه، تصخب في جوانب نفسه وتؤلمها. ود لو يصفع هذين الراكبين الصفيقين. كانت هذه الأخرى رغبة مكبوتة، سرعان ما طواها، وقبع في مكانة صامتا. عيون كثيرة بدأت تنظر إليه شزرا. أمعنت التحديق، أحس معنى النظرات وفهمها جيدا ... نظرات شك وارتياب. إنه متهم. النظرات تحاصره من جميع الجهات. هي قضبان حديدية تحصره في منطقة مظلمة من قاع سجن رهيب. ود

لو يخرج الورقة المالية الكبيرة، ليبرئ نفسه إنها دليل قاطع. لكن!.. أيمكن لأحد أن يصدق ؟ سائق التاكسي لم يصدق. تجاوزه، ولم يعطف عليه بنظرة ما، كأنه لا يراه!

وفجأة، سيطر عليه ظن بأن الورقة المالية قد نشلت. هبط على الفور عند أول محطة. وضع يده في جيبه فوجدها لا تزال قابعة في مكانه المتواضع. أطمأن. تشبث بها كطفل، وقنع بالمسيرة المعتادة كأفضل وسيلة للوصول إلى حجرته المظلمة.

طالعه وجه حمدية الأسمر. قالت له على الفور:

- تتغدى؟

- ليس الآن. أريد كوب شاي.

تعجبت لحاله، فما اعتادت منه ذلك. ما إن يدخل الحجرة حتى يزعق طالبا الطعام. فما الذي غيره؟... سألت مستفسرة:

- تغديت؟

- لا...

صمتت قليلا، ثم قعدت القرفصاء وأشعلت موقد الجاز فاندلعت ألسنة اللهب عالية، وامتلأت الحجرة بدخان خانق. سعل مرزوق مرات متتالية، ثم قال في ضيق:

- متى نستريح من هذا الهباب؟

- شد حيلك، واشتر "بوتاجاز" .

هي لا تطمع في البوتاجاز ولا تمني نفسها به، إنما تدعو الله أن يهبها من الرزق ما يكفي ضرورات الحياة. لا تطمع في شيء إلا قوت يومها، وقرشا يدخرانه لمستقبل الأيام. أمسكت مقبض المكبس وضغطته عدة مرات. بللت قطرات العرق صدرها الأسمر المكتنز. راقبها مرزوق فأدرك مدى العبء الذي تنوء به. ود لو يستطيع فعل شيء. جالت بخاطره فكرة طارئة، وهي شراء "بوتاجاز" !.. ستفرح حميدة. يجدر به ألا يبوح بهذه المفاجأة. عليه تكتم الأمر حتى يشتريه، فما أجمل المفاجآت السارة!

قالت حمدية وهي تضع براد الشاي على الموقد:

- اقترضت بريزة من أم علي... الخضار كان غاليا اليوم.

- سأفك وأعطيك البريزة.

تنهدت مندهشة:

- تفك!.. من يسمع كلامك يظن أن معك ورقة بعشرة جنيهات!

لم يشأ مصارحتها بما يملك. آثر الصمت، حتى لا تسأل عن مصدرها، فتشك فيما يقول، ثم تقترح عليه – في النهاية – ادخارها للمستقبل.

ارتشف الشاي في صمت. استرجع في خاطره ما حدث. كيف زارت الورقة الجميلة جيبه؟....

توجه إلى بيت الحاج فهيم حاملا لفافة لحم كبيرة. أخذ ينهب الطريق مسرعا، حيث طلب الحاج الإسراع في الحضور بعد العصر، حتى يقوم بتفريغ عربات القطن الضخمة التي ستصل من محلج القطن بطنطا. كما أنه خشي تلاف الورقة التي ينز الدم منها. كان الجو حارا، والعرق يتصبب غزيرا من جبهته وتصل قطرات منه إلى جفنه العلوي فيحس بثقلها، إلا أن إحساسا جميلا ينسيه كل هذه المضايقات. الست هناء لا تبخل عليه بشيء، تقدم له الطعام وما أشهاه! وتعطيه نقودا، علاوة على منحها إياه بعض الملابس التي يستغني عنها الحاج. هذا كله كانت الرحلة

جميلة ومرغوبة. وفي لحظات شروده تذكر أن اليوم عيد ميلادها. لا يعرف كم عاما مضى على ميلادها، لكنه يحفظ تاريخ اليوم جيدا. يترقبه بلهفة. فكر في شراء هدية، عرفانا بجميلها وتقديرا لها، إلا أنه تنازل عن فكرته لضيق ذات اليد، ولأنه لا يضمن أن تقبل الهدية.

فتحت له الخادم. ناولها اللفافة ووقف طويلا في الصالة، قبل أن تخرج الست. حياها، وتبادل معها بضع كلمات، ثم قال:

- كل سنة وأنت طيبة يا ست هانم.
- وأنتَ طيب يا مرزوق. لكن ما المناسبة؟
- ألا تعرفين أن اليوم عيد ميلادك؟
- أعرف، لكن كيف عرفتَ أنت؟
- أحفظه جيدا يا ست هانم، كل سنة وأنتِ طيبة...
- تعرف أنك أول واحد يهنئني؟

غابت عنه قليلا ثم ما لبثت أن رجعت ودست في يده ورقة مالية.

ثم استأذن لتأخره على الحاج. هبط الدرج في أناة ومهل. بسط كفه فذهل. أعطته عشرة جنيهات!.. يا الله!.. هل تهنئته غالية إلى هذا الحد؟ فكر في أن يصعد ثانية وينبهها، ربما أخطأت. إلا أنه تنازل عن العودة إليها، اعتقادا منه بأنها تكافئه مكافأة سخية على هذه التهنئة. قد يستحق المكافأة، ولو أنها كبيرة.

خيل إليه أنه يحلم. سرعان ما يفيق من الحلم فلا يجد شيئا. وبحركة لا إرادية تسللت أصابع يده المرتعشة إلى جيبه واطمأنت إلى الورقة المالية التي استوطنت جيبه.

ارتشف الرشفة الأخيرة من قدح الشاي، في تلذذ، وهو شبه حالم، ثم اضطجع على الفراش منشدا الراحة، إلا أنه سرعان ما نهض وتهيأ للخروج.

- إلى أين؟

سألت وهي تعجب لتغيره المفاجئ.

- تخرجين معي نتفسح؟!

- أجننت؟!.. أين نذهب؟

- كما يحلو لك. أخرج أنا.

لم يشأ أن يجادل أو يلح، فهو أدرى بصلابة رأيها وعنادها لن تفهمه بسهولة. هو الآن لا يطيق الجدال أو الإلحاح، لا يطيق صبرا إزاء استفسارات زوجته التي لا تنتهي. أفرغ عربة ضخمة من أكياس القطن قبل أن يرجع إلى البيت، وسمح له الحاج فهيم أن يتغدى ويستريح، ثم يعود بعد العصر لتفريغ باقي العربات التي ستصل بعد ساعتين أو أكثر.

بعد خروجه من الزقاق التقى أبناء الحي على المقهى. اقتعد كرسيا من القش وتبادل التحية وبضع كلمات متناثرة. قال أحدهم:

- مشروبك على حسابي يا مرزوق.
- لا يا جماعة. مشاريبكم كلها على حسابي.

دهش الجميع... انثالت لكلمات في تفاوت زمني...

- كلها، كلها... هذا كثير.

لم يصدقه أحد. كرر ذات الكلمات، تأكيدا لما يعني، إلا أنهم تبادلوا نظرات الاستنكار والشك. قال مرزوق في حدة:

- والله العظيم يا جماعة، كلام جد.

لم يصدقه أحد. أحس باكتئاب، وبضيق في صدره يكاد يكون اختناقا. أخرج الورقة المالية وبسطها أمامهم على الطاولة مشيرا إليها بإصبع السبابة في زهو:

- معي عشرة جنيهات. صدقتموني؟

تبادلوا مرة أخرى نظرات الاستنكار والشك، ثم أمعنوا النظر إليه في ارتياب. انفجر أحدهم فجأة، وهو مشهور بنكاته اللاذعة:

- لازم سرقها.

ضحكوا ضحكات عالية. اغتاظ مرزوق. أحس بالأرض تكاد تميد من تحته. آخر يقارع الأول في التعليقات:

- لا يا أخي... الحاج طلب منه توصيلها للست هانم.

انفجرت الضحكات مرة أخرى بصوت أعلى، ود لو تنشق الأرض من تحت قدميه وتبتلعه. قال ثالث.

- عشرة جنيهات يا مرزوق دفعة واحدة. صدق من سماك مرزوق... صحيح أنت مرزوق.

هب مرزوق واقفا في غيظ، تاركا مجلسهم دون تحية، ثم هرول بعيدا عنهم، وصوت صبي المقهى يا مرزوق.

فرد أحدهم:

- مشروب!.. مرزوق لا يشرب، يدفع فقط ثمن المشاريب...

وغرقوا في ضحكات ماجنة أمضوا فيها باقي وقتهم، وكانت هذه تسليتهم. وظلوا يتسلون بحكايات ونوادر عن مرزوق.

أما هو، فقد سار مكتئب الصدر، حزين النفس، لا يلوي على شيء ولا يحس بطعم للحياة. كان جهم الوجه، كاسف البال. أحس بأن الورقة التي زارت جيبه ضيف غريب لا يتناسب مقامه مع حقارته ومهانته. جال بعينيه في جلبابه الرث القاتم اللون، وجيبه القابع في الركن العلوي الأيسر. جيب صغير لا يتسع إلا للقروش القليلة. أما الورقة الغريبة فقد تكومت في جيبه الصغير فانتفخ، كأنه ضجر من وجودها. أحس بها حمل ثقيل ينوء به جيبه، فتثاقل عليه الإحساس.

قادته خطاه إلى شاطئ النيل، فسار بمحاذاته فترة ثم اقتعد مقعدا رخاميا ليستريح. تكسرت حدة الشمس قليلا. يتوجب عليه الرجوع إلى المحل. لكن ماذا يفعل بالعشرة

جنيهات؟ كيف يتصرف؟ هل يصدق الحاج فهيم أنها ملكه؟ فليلاق بها في قاع النهر كأنها لم تكن. إنها ملكه، ويحق له التصرف فيها كيفما يشاء. ود لو يحرق الورقة أمام أصدقائه الذين سخروا منه ولم يصدقوه. اليوم عيد ميلاده، إنه يتذكره الآن فقط، واليوم عيد ميلاد السيدة هناء أيضا، فيا لها من مصادفة عجيبة! ورغم هذا فلا أحد يهنئه بهذا العيد. زوجته الساخطة لا تذكر اليوم، وأصدقاؤه الماجنون لا يهتمون به.

الكل لاه عنه غريب.

يستطيع أن يهبها لأول عابر طريق يهنئه بهذا العيد، أو حتى يلقي عليه السلام، فقط يحييه، يا لها من تحية غالية أخذ يرقب المارة ويمعن النظر في وجوههم.

الكل لاه عنه غريب.

لا أحد يلتفت إليه، ولا حتى يحييه بنظرة! ماذا جرى للدنيا يا ترى؟! ماذا جرى له حتى يفكر في مثل هذه الأمور؟!

لن يلقي الورقة في النهر، خسارة! أيا كان نوع الغضب الذي يعتريه الآن، فلا يصح أن يؤدي به إلى هذا التصرف الأحمق. نهض عن كرسيه حتى يجسم الأمر، ومشى في

اتجاه حي "السيدة زينب" . ركض في لهفة كأنه على موعد. فالمطلوب منه التوجه إلى المحل، وأي تأخير سيحاسب عليه محاسبة قاسية، إلا أنه عرج على منزل الحاج، وصمم على إرجاع الورقة المالية إلى صاحبتها. ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وهو يتخيل الست هناء تسأله عن السبب، وما يقول لها من أنه ليس محتاجا إلى المال بقدر حاجته إلى رضاء الناس عنه. دق جرس الباب في لهفة، وحين قابلته، كانت أنفاسه تلهث وقلبه يدق بسرعة. سألت:

- ماذا جرى لك يا مرزوق؟!

- أشكرك يا ست هانم، لكن....

- ناولها العشرة جنيهات. ثم هم بالانصراف، لكنها استوقفته متسائلة:

- لماذا لم تعطها للحاج؟

انزعج، كأنه بوغت... تمتم في أسى:

- لقد ... نسيت!

- ألم تسأل نفسك لماذا أعطيتها لك؟... أم أنك طول عمرك بطيء الفهم؟.

أخفى وجهه عنها، محاولا حبس الدموع التي توشك أن تنبجس من عينيه.

- آسف يا ست هانم... أعطني إياها.

هبط الدرج بخطى متعبة، وهو يتساءل في مرارة: لماذا تقسو عليه الست هناء؟... ألا تكفي سخرية الزمان، وأحلام يقظته التي صورت له الوهم حقيقة؟

واغرورقت عيناه بالدموع...

مجلة " الأديب " – بيروت – ديسمبر ١٩٧٣

الصديقان

بعد عامين من الغربة، تسبقه اللهفة والحنين. لم يشعر في أوروبا بسعادة كالتي شعر بها أثناء هبوط الطائرة أرض الوطن. كل ما في جعبته من ذكريات البعثة، حكايات مبعثرة يتبدد صداها من النفس بمرور الزمن. ظل طيلة العامين يواري جرحه الغائر. يؤجل البت في الشكوك التي تنتابه لحين عودته إلى مصر. اليوم يعود، فماذا هو فاعل؟ أحيانا يؤكد لنفسه أن هذه الشكوك لا تعدو أوهام مغترب، وأحيانا أخرى يجزم بصدقها ... إذا كان مخطئا في ظنه، فما بالها تلتزم الصمت وتتجاهل رسائله؟ لم تصله منها في غضون العامين سوى رسالة يتيمة بعثت بها بعد شهر من غربته، ثم لا شيء. ظل يكتب الرسالة تلو الأخرى حتى كلت يداه، وضجر قلبه، وأحس بالهوان، فامتنع عن الكتابة. جاءته رسالة من والدها، يستهلها بالتحية التقليدية، والشوق لرؤياه. فعاد يكتب من جديد، دافنا جراحاته. وهو يحن للبريد القادم

من أرض الوطن. ظل يعد الأيام والليالي، كأنه في سباق مع الزمن، مؤكدا لنفسه أن عودته إلى مصر ستحسم كل شيء.

اليوم يئوب من غربته. سيعرف سر امتناع سلوى عن الرد. إنها أقرب الناس إليه، أو هكذا يجب أن تكون. فما باله يحس أنها أبعد الناس عنه؟ كيف تحرمه خطيبته من رسالة بخط يدها ؟ مجرد رسالة لن تكلفها شيئًا. أأصابها مكروه؟ ارتعد لهذا الخاطر المزعج، وأيقن أن طالعه السيئ يناصبه العداء في كل شيء.

استقبلته في المطار أمه الحبيبة، ووالد سلوى... أما سلوى!.. ابتسم أبوها قائلا:

- سلوى عندها نزلة برد...

قد يكون العذر مكروها حال بينها وبين الرد على رسائله!.. اكتأب صفوت، ووارى ابتسامة اللقاء، وتكدر قلبه.

ذهب إليها، واطمأن على صحتها. حمد الله على أنها نزلة برد خفيفة، ثم عاد من جديد يسائل نفسه عن سر صدها عنه. أتكرهه؟ لماذا إذن رضيت الارتباط به؟ حين سألها عن امتناعها عن الكتابة، قالت إن أباها نصحها بذلك. اقتنع صفوت، والتأم الجرح الغائر في أعماق قلبه... عاد يزرع

الفرحة من جديد في قلبه البائس، فنبتت ابتسامة الرضا على شفتيه. تبادلا أحاديث باسمة، إلا أن التوتر كان باديا على ملامحها. غالبت ارتباكها، لكنها في كل مرة تلعن البرد الذي أفقدها حلاوة اللقاء.

لم تغتبط كثيرا بهديته القيمة – معطف فرو ثمين – وادعت أنها لا تريد أن تكبده أية مصاريف.

تحطمت في خياله الصورة الجميلة التي يختزنها في أعماقه طيلة العامين، لم تعد سلوى تلك الفتاة الرقيقة التي طابت لها نفسه. رجع بذاكرته إلى الوراء، حين التقاها عدة مرات قبل الخطوبة. ربما تكون لقاءات خادعة زينت له نفسه أنها كافية، ثم تعجل كل شيء قبل السفر... أخذ يحسب كل شيء بحساباته الدقيقة. يخطب سلوى، ثم يسافر، ثم يتأهب بعد عودته لعقد القران. لكن أمور الزواج يا صفوت لا تخضع للخطط وسرعة تنفيذها. العلاقات الإنسانية شيء غير الهندسة والتخطيط، شيء غير المهنة وصرامتها.

التقى فوزي. حدثه عن محنته، والجمود الذي أصاب خطوبته. كان نبأ الخطوبة مفاجأة لفوزي الذي انقطعت بينه وبين صديقه سبل اللقاء قرابة العامين. عين فوزي مهندسا

في إحدى شركات المقاولات بأسوان، ثم نقل إلى القاهرة هذه الأيام، وتصادف أن عاد صفوت من بعثته، فسنحت فرصة اللقاء بين الصديقين.

لم يكن فوزي بأحسن حالا من صديقه. قد أحب فتاة ووطد العزم على التقدم لخطبتها، لكنه أرجأ ذاك حتى ينتقل إلى القاهرة. وطفق يبذل مساعيه ويذلل الصعوبات حتى تحقق له ذلك، بعد عام من الغربة التي باعدت بينه وبين حبيبته. لكنها قبلت الزواج من غيره. قالت حين التقاها:

- اعذرني يا فوزي، وعاتب نفسك أيضا. ألهاك العمل عني... تخرجت وسافرت إلى أسوان... دون وداع، أو حتى كلمة واحدة!

- قد تسير الحياة الإنسان، وتلهيه بعض الوقت.

- لم تحاول أن تكتب لي...

- خشيت أن يساء فهم خطاباتي، ربما تسبب لك المتاعب وأنا أعرف عن والدتك تزمته وتشدده. قررت التقدم إلى أبيك طالبا الزواج. حرصت على ألا يكون بيننا ما يعكر صفو العلاقات. حسبت أنك حريصة مثلي.

- النفس تهجس بوساوس قد يصدقها العقل. في غيبتك، تحمس أبي لتزويجي من زميل تقدم لخطبتي، وأقنعني بأخلاقه النبيلة، فعجزت عن رد طلبه.

- وحبنا. يموت!

- ظننته مات في قلبك. أما أنا فقد وأدت عواطفي، ورضيت بواقع الحياة الذي يسير بنا إلى غير ما نهوى. ربما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن!

- أأكون مخطئا وقد كافحت من أجل حبنا عاما كاملا؟

- لست أعاتبك. لكنك تركتني أسيرة وحدتي... والحياة، الحياة تسير يا فوزي... الحياة لا تتوقف...

لم يكن لديها حل للمشكلة، ليس في قدرتها أن تخل نفسها من اتفاق، أو تعمل على فسخ خطوبة. تحطمت آماله، وسلبت منه الحياة أعز ما يملك. انتزعت منه آخر ما يملك. انتزعت منه الدرة الثمينة التي احتفظ بحبها في سويداء قلبه.

أنصت صفوت إلى حكايته، ثم زفر زفرة ألم صادرة من الأعماق، ثم قال:

- كلانا معذب... يبدو أن الحياة تأخذ بقدر ما تعطي. لا يمكن أن تدوم السعادة لإنسان.

- والحب !.. ألا يدوم الحب؟ برغم شقائي ما زلت أحبها... الحب لا يموت... في الوصال، وفي البعد. في السعادة، وفي الشقاء.. الحب باق... إنه – ليتك تصادفه – أغنية خالدة تشدو بها القلوب التي أضناها العشق.

حين باح صفوت بهمومه لوالدته، طمأنته خيرا... فالزمن كفيل بعلاج كل شيء.

- ما سر جفائها؟

- تزوجني أبوك بدون أن تكون بيننا سابق معرفة. كنت لا أرتاح إليه كثيرا. لكننا بعد الزواج، صرنا زوجين سعيدين ... حسدنا الناس على الوفاق الذي استمر حتى وفاته، رحمه الله عليه.

لم يقتنع بمنطق أمه. ظن أنه أخطأ الطريق، ثم أصبح الظن يقينا. ترك ظلالا كئيبة من القلق والهم ضاقت بها نفسه التواقة إلى السعادة الزوجية.

التقى أباها، فنصحه بعقد القران، حسما للأمور. فوعده بذلك. إذا اطمأن قلبه على سلوى.

خرج معها للتنزه. جلسا على كازينو مطل على النيل... تجاذب معها أطراف الحديث، ثم طلب منها أن تبوح بالسر المختبئ في قلبها. سألت:

- أي سر؟

- أبحث عن الشيء المختبئ في قلبك، وجعلك تمتنعين عن الكتابة وأنا بعيد عنك، مغتربا عن الوطن. الشيء الذي جعلك تجمدين وقت لقائنا بعد طول غربة، وترتبكين في الحديث... كأننا مسافران، كل له طريق.

- أنت تحمل الأمور طاقتها.

- اعذريني يا سلوى. كنت قلقا حين التقينا بعد عودتي من أوروبا... ثم التقيت صديق العمر، فزاد القلق حين حدثني عن قصة حبه التي ماتت وهي جنين.

وقص عليها هموم صديقه، ثم عقب:

- خشيت أن يكون في قلبك مثل هذا الحب.

لم تبح بشيء. طمأنته إلى أن أمور الزواج ستسير في مجراها الطبيعي. وتراءت له سلوى، زوجة المستقبل، فتاة غريبة عن عالمه، إنسانا جامد الملامح ... يتكلم، يضحك،

يصمت ... لكنه يخفي أحاسيس غامضة... الكلمات باردة، الضحكات مفتعلة، الصمت كئيب.

بدت سلوى هادئة الملامح، لكن عينيها تفضحان سرها... يكاد يرى في قطعتي الزمرد المتحركتين آبارا عميقة تحوي أسرارا وألغازا. عيناها دنيا لم يكتشفها، عالم مجهول لا يدري كنهه.

مرة أخرى يلتقي مع فوزي، الصديق الذي انتهت قصة حبه بفشل أدى به إلى تحقير نفسه... ترك فتاته تضنيها الأحاسيس المتباينة حتى حسبت أن بريق الحب قد خبا في قلبه، وانغمس في شواغل الحياة.

- هون عليك يا فوزي، هكذا الحياة.
- بودي لو قتلته!
- من؟
- الذي سرقها مني. سرق درة الفؤاد.
- لم يقصد السرقة.
- أتعرفه؟

- ليتني أعرفه حتى أكون رسول سلام بينكما، وأقنعة بالعدول عن هذا الزواج.

- ما هذا الذي تقول؟

- لو جرب الحب لعدل عن زواجه منها.

- حتما لم يجرب.

- ما اسمها؟

- ألا تعرفها يا صفوت؟ إنها سلوى، زميلتنا في الكلية.

اكفهر وجه صفوت، وأسقط في يده الموقف. أحس أن شيئا ما غادر في أعماق نفسه، وأن الدماء جفت في عروقه!

- ما بك يا صفوت؟

انخلع قلب فوزي، وهم باستدعاء طبيب.

- ماذا أصابك؟

جس نبض يده، كانت باردة... الجمود يسيطر عليه، عيناه شاردتان... وبعد لأي، ومغالبة النفس، قال صفوت.

- لم يصبني شيء... إنها حالة تنتابني منذ عودتي من أوروبا.

استمرأ أكذوبته. أسهب في شرح حالة وهمية تسبب له هذه الأعراض المفاجئة. وارتاح صفوت بعض الشيء. أكمل فوزي:

- إنك تعرف قصة حبنا ونحن طلبة في الكلية...

وجم قليلا ثم قال:

- اعذرني يا فوزي، لم أكن أبالي بمثل هذه الأمور، أو أهتم بها. هذه طبيعتي. كنت منغمسا في الدراسة، منشغلا عنك وعن حبك لسلوى.

- تمنى صفوت أن تنشق الأرض وتبتلعه، أو يهرب على التو إلى جزيرة مهجورة... أو...

لاحظ فوزي تغيره المفاجئ. لم يشأ أن يسأل. اكتفى بالصمت عساه يكون بلسما. قال صفوت بعد أن هدأ قليلا:

- اعذرني يا فوزي، قد نسيتك وتذكرت ما حدث أمس مع خطيبتي. أسأت إليها، ويحق لي الاعتذار. بودي لو أذهب الآن وأستريح من وخز الضمير.

- الساعة الآن العاشرة مساء.

- لكني مصمم على زيارتها!

لم يتوجه إليها كما قال، وإنما رجع إلى البيت مهموما. أخذ يحرق أنفاس الليل بسجائره، احترق صدره بدخان كئيب ذي ظلال قاتمة سوداء. إنه الرجل الذي يتمنى صديقه أن يقتله. إنه سارق حبيبته دون قصد. إنه اللص!.. وأدرك سر غموض سلوى التي غالبت حبها لفوزي، إزاء التزام عائلي لا تملك منه فكاكا.

عاندت قلبها من أجل ألا تحل رباطا برجل لا ذنب له. فيا لها من فتاة!.. لكن المشكلة في موقفك يا صفوت!.. يجب أن يكون الموقف رائعا، يجب أن ترد الوديعة الغالية إلى صاحبها، وتنهي هذا الحرج العفوي. شاء القدر أن تكون زميلتك في الدراسة، وتقدمت لخطبتها، وظنت هي أن فوزي باع حبها جريا وراء مغريات الحياة... فوافقت. وكان ما كان ... تلاقي الأحبة، والتصارح، والفراق دون اتفاق... أصبحت يا صفوت حجر عثرة في طريق المحبين!

بكى صفوت، ربما لأول مرة منذ ودع عهد الطفولة، احترقت السيجارة عن آخرها بين أصابعه دون أن ينفث دخانا... غرق في هواجسه.. نسي السيجارة السجينة بين إصبعيه... السيجارة تحترق... ليس له في السيجارة نصيب.

يجب أن يحررها من إصبعيه... وضعها في المطفأة بعد أن أطفأ لهيبها وهب واقفا، معتزما أن يكون رسول سلام بينهما. لن يكون حجر عثرة في طريق المحبين.

اتصل هاتفيا بسلوى، ثم فوزي. استطاع في هذه الليلة أن ينام بعد أن هدأ انفعاله، واستراح من وخز الضمير.

مجلة " الأديب " بيروت – يوليو ١٩٧٤

صفية

مات أبواها وهي في سن الخامسة عشرة. تركت البيت وعاشت في كنف عمها مجاهد. لا مفر من المعيشة في بيت العم، فهي وحيدة أبويها الراحلين. وبرغم عزلتها، إلا أنها تأقلمت مع أسرة العم كثيرة العدد. أولاد العم خمسة. تفاوت السن بينهم لا يعدو العام أو العامين بين كل أخ ومن يليه في الترتيب.

همس مجاهد في أذنيها ذات الليلة:

- سأكمل رسالة أخي الراحل. أرجو أن تواصلي الدراسة حتى تستطيعي الاعتماد على نفسك، ومجابهة الحياة.

تركت كلماته أثرا جميلا في نفسها. أحست بصدقها، ولمست كفاحه كأب مسئول عن ولدين وثلاث بنات، ومدى حرصه على راحتهم. كانت سعادته لا تقدر حين ضمها إلى الخمسة، واعتبرها السادسة كما احتفت بها زوجته، وأولتها اهتماما زائدا.

دأبت صفية على مذاكرة دروسها في جو آمن هادئ، وحنان بالغ. تعرفت على عمها عن قرب، كأنها تستكشف أرضا مجهولة. إنه يتعامل مع الناس بحرص شديد. يخشى أن يخدش أحد اسمه ولو بكلمة عابرة. لذا يضطر إلى تحاشي الناس، وعدم التصادم معهم. وإن تنسى فلا تنسى تلك الليلة العاصفة، التي زاره فيها جاره مسعود، وشكى له من أحمد الذي عاكس ابنته سعاد فإذا به يعتذر، ويكرر الاعتذار حتى خيل لها أنه سيقبل حذاءه، لم يكن مسعود في حالة غضب أو ثورة، وإنما أراد أن يؤاخذ الأب على تصرف عابر من ابنه. غلق الأبواب والنوافذ وأنب أحمد ووبخه. كرر التأنيب والتوبيخ مرات عديدة، وأحمد ماثل قبالته، لا يتذمر ولا يضجر، كأنه ورث طبع أبيه. أصغت لكلمات العم القاسية، ثم انزوت في ركن ناء. بكت حزنا على ما أصاب أحمد. التفت مجاهد إلى زوجته وأسمعها نصيبها من كلمات الزجر والعتاب، مدعيا أن تهاونها في تربية الأولاد هو السبب.

قال محتدا:

- لا أحب أن يجرح كرامتي إنسان، فلتفهمي هذا أنا رجل على قدر حالي، وأدعو الله أن يسترها معي، وأربي أولادي تربية حسنة. أرجو أن تساعديني يا بهيجة.

قضى الأب ليلته في قلق بالغ. لم تكن تتصور أن زيارة مسعود، وكلماته العابرة ستترك كل هذا الأثر في نفسه. انعكس الأثر على زوجته وأولاده. قالت لأحمد الغارق في صمته:

- تحمل أباك. إنه رجل طيب.

فرمقها بنظراته وصمته.

باتت ليلتها تفكر في عمها الذي لا تعرفه. يتحاشى مواجهة الناس، ويتفادى الاحتكاك بهم. في هذا الجو الآمن واصلت دراستها حتى التحقت بكلية الآداب.

تعرفت على ياسمين، زميلة الدراسة، ووثقت صلتها بها حين عرفت أنها تسكن في مصر القديمة، مسقط رأسها. وأثناء زيارتها لياسمين، استعادت ذكريات صباها، واقترحت عليها التجول في الحي، كما تعمدت المرور في الشارع الذي عاشت فيه. تعرف عليها جار عجوز. رحب بها، ودعاها للغداء في بيته، فاعتذرت متعللة بصديقتها. جالت بعينيها في

النوافذ والطرقات، عساها تلتقي به مصادفة. لكن المصادفة لا تأتي لمن يترقبها.

وحين زارتها ياسمين، انقلب البيت رأسا على عقب، وأنصت الجميع من خلف الجدران والأبواب. رحب مجاهد بياسمين بأدب زائد، وكلمات غير منظمة. وحين هم أحمد بالدخول زجره الأب بكلمات هامسة. أحست صفية بعدها أن الزيارات ممنوعة، أو محظورة. تعلم أن العم وزوجته لا يتبادلان الزيارات مع الجيران والأقارب، ونشأ أبناؤهم على هذه الطبيعة، وإن حدث تمرد، ففي الخفاء. لذا قيدت علاقتها بياسمين، وإن أصابها ضيق. وفي كل يوم تزداد قربا من عالم عمها.

حياتها رتيبة عادية. لا جديد ولا مفاجآت، سوى أحاديث مع الأصدقاء بين المحاضرات، والعودة إلى البيت، والمذاكرة، والنوم الهادئ حكاية كل يوم. لا جديد يحررها مما تعاني من ملل ورتابة. تعدت العشرين بقليل. صداقتها بياسمين تمضي بين مد وجزر. تود أن توثق علاقتها بها، لكن تزمت العم يمنعها. يشدها الحنين إلى الحي القديم بخيوط حريرية. رأت في وجه ياسمين صورة لذكريات الصبا.

وتذكر زغلول، الفتى الذي كان يؤنس مجلسها. ما زال صدى الضحكات يرن في أعماقها، لكنها لا تعرف له مكانا، مجرد رغبة دفينة لمعايشة عالمها القديم الأثير. تدفن الرغبة في الحنايا، لكنها كامنة، ويشوقها أن تبعث الماضي من جديد.

وانتظرت التعيين في وظيفة، حتى تعتمد على نفسها.

ذات مرة التقت بياسمين. حدثتها عن خطيبها، وكانت مفاجأة. ياسمين فرحة بخطيبها. تحكي لها أدق الأسرار والمشاعر والخلجات... تستطير فرحا بعالم ياسمين الجديد. تتمنى أن تلج هي الأخرى عالما كهذا. الزواج خطوة أخرى ستخطوها، بعد الوظيفة الجديدة. يبدو أن الحياة مجموعة من الخطوات المنتظمة، ويبدو أن البشر سيغمر عالمها بعد طول جدب. إلا أنها سئمت الجو الرتيب المتحفظ لبيت العم مجاهد.

ودعت ياسمين وعادت إلى البيت تخالجها أحاسيس متباينة. أغلقت باب غرفتها، ورقدت على الفراش شاردة هائمة تفكر في حياتها هذه، والمستقبل، والعريس المنتظر، وكيف ومتى يأتي؟ هي لا تخالط المجتمعات، ذعرت حين خامرها هذا الإحساس،

وتساءلت: لماذا تنعزل عن المجتمع ؟ كيف يأتيها عريس وهي قابعة في هذه العزلة؟ ياسمين أتاها العريس لأنها متحررة، ولها علاقات في محيط الأقارب والجيران والأصدقاء. لماذا لا تخرج من قمقم العم مجاهد، تطل على العالم الخارجي.

تقف على مجريات أموره؟ قارنت بين حياة العم مجاهد المتحفظ، وحياة العم سعيد المتحرر. العم سعيد يقطن في ضاحية مصر الجديدة، في منطقة راقية، وهو يساير عصره، ويشغل مركزا مرموقا بصفته مديرا عاما لمخازن إحدى الشركات. كثيرا ما قص عليها ما تحتمه الوظيفة من توثيق علاقاته بالناس، وما يدر عليه ذلك من ربح مادي ومعنوي. قفز إلى خاطرها جو الحفلات التي قيمها في بيته، بمناسبة وبدون مناسبة، مستقطبا الشخصيات البارزة المرموقة. تعود إلى عالم العم مجاهد الذي تعيش في كنفه. إنه لا يزور الإخوان سوى مرة واحدة.

تذكر آخر مرة زارت فيها عمها سعيد، وتذكر حفاوته بها. لماذا لا تترك هذا البيت، وتذهب إلى البيت الآخر؟ قد ضاقت ذرعا من عزلتها وانطوائها. هناك، ستجد العريس

المنتظر. أما هنا، فلا أمل في شيء. وبعد أن وانتهى هذه الهواجس، عجبت لحالها. تساءلت : ألمجرد أن خطبت ياسمين، تواتيني هذه التقلبات؟ لكني تجاوزت العشرين، ويجدر بي أن يقاسم حياتي رجل ما.

وفي تلك الليلة، قررت الذهاب إلى العم سعيد.

استقبلها بحفاوة بالغة، وعرض عليها، كعادته، أن تقيم معه، فوافقت. ورحبت بها الأسرة كلها. أقامت الأسرة حفلا صغيرا. تركوا لها مهمة توزيع قطع الحلوى مع أقداح الشاي. ورقصت صفاء كثيرا على موسيقى المسجل الغربية والشرقية!

بهرتها الحياة الجديدة، بصخبها وضوضائها. أحست أن الحياة لا تطاق إذا سارت على وتيرة واحد. لا بد من التغيير. قبل ذلك، كانت تعاملهم بحذر. أما الآن فهي تتأقلم معهم، كما بدأت تهتم بملابسها وزينتها وعطورها. صارت أنثى وأحست أنها ولدت من جديد.

بعد أسبوع، زارت عمها مجاهد. ذكرت له إلحاح العم سعيد، فرأت أن تقيم عنده فترة حتى تسترضيه ! قال لها مجاهد:

- أحمد الله أنك أنهيت دراستك في الكلية، وحصلت على الشهادة.

- هذا بفضل الله وتشجيعك.

- أديت واجبي...

إحساس عابر ضايقها، بأنها لم تترك العم مجاهد إلا بعد انتهاء الدراسة، و... ستلحق بوظيفة. كان الأجدر أن ترد بعض الدين، لكنها تطمع في الزواج، فكيف يأتيها من يخطبها وهي منطوية على نفسها؟ ودت أن تفسر له ذلك، لكنها أحجمت.

استمرت الحياة الجديدة. وتسنى لها التعرف على عدد من الشخصيات. بدأت تلج دور السينما والمسرح والنادي مع بنات عمها. انجذبت إلى شاب في الثلاثين. تعرف عليها أثناء جلوسها في النادي مع هيفاء. ألح عليهما أن يستقلا عربته، ثم تكرر اللقاء مرة ومرتين، ومرات... ثم أصبح لقاء معتادا. أحبت أن تتعرف على عالم نبيه، وأن تتعايش معه، وتشاركه أحلامه. دعاها للذهاب إلى السينما، فوافقت، ثم عاتبت نفسها. كان بارعا في إلقاء آخر ما سمع من فكاهات وقفشات. صوته هادئ رقيق. شعره طويل ناعم. ناحل

القوام، طويل القامة. أحست أنه نوع لم تألفه من الشبان، لما يتسم به من رقة متناهية. فوجئت به ذات لقاء يقول بلهجة واثقة:

- أحبك...

- وأنا أيضا...

تسرعت في الإجابة. ومن جديد، عاتبت نفسها، لكن لا مفر. ماذا تسمي الإصرار على اللقاء، من جانبه ومن جانبها؟ ماذا تسميه إن لم يكن حبا؟

فاجأها العم بوظيفة في الشركة التي يعمل بها، لم تكن مهيأة لهذا، لكنها سعدت بالخبر. ثم كانت المفاجأة الثانية حين التقت مصادفة بزغلول، الجار القديم. تعمدت أن تتوارى عنه. إنها لا تدري كيف تواجهه، وهل يذكرها، أم أن الحياة ألهته عن جارته القديمة؟ عرفته قبل أن تراه، من اللوحة الخشبية الموضوعة على مكتبه "زغلول فريد كامل" . ما زال الاسم عالقا بذاكرتها. اسم لم تنسه برغم كر السنين وتراكم الأحداث. شيء مبهم جعلها تتوارى عنه كلما لمحته. سألت عمها سعيد عن زغلول، فمط شفتيه، ورجع بجذعه إلى الوراء، ثم قال:

- موظف هادئ وعادي... و...

وشرد، كأنه يستعيد صورة زغلول، أو ملامحه، يبدو أنه لا يعرف عنه أكثر مما قال، رغم أنه يعمل تحت رئاسته. وسرعان ما ألهاها نبيه بمواعيده اليومية، ومكالماته الهاتفية أثناء عملها. وإزاء ما تحسه من سعادة وبهجة، باحت لبنات عمها بحب نبيه لها، وبقرب قدومه لخطبتها. مرة أخرى عاتبت نفسها على التسرع في الإبانة عن مشاعرها. ولكن، ألم يبح لها بحبه؟... و... ألم يختلس قبلة ضمنها أشواقه؟ زجرته بعد القبلة، لكنها استطارت بها فرحا، واعتبرتها تصريحا لما يريد أن يقول.

وانتشر الخبر بين أفراد أسرة العم. ثم تمضي الأيام، ولم يأت الخطيب، ولم يعد بشيء! قلقت. لاسيما أن مكالماته الهاتفية بدأت تقل، كذلك مواعيده. اتصلت به، فحدثها بكلمات غير مفهومة، قلقت لدى سماعها. سألت:

- لماذا لا نتزوج؟

- نتزوج!..

صوته كان ممزوجا بالدهشة. وسرعان ما ضحك. جلجلت ضحكاته عبر سلك الهاتف.

- حقا يا صفية... نعم... سنتزوج. لكن كلامك فاجأني!..

ولم تعطه فرصة لإتمام كلامه، وضعت السماعة في عصبية، وانخرطت في بكاء متواصل. كانت تجلس بمفردها في المكتب. أخفت رأسها داخل ذراعيها المتشابكتين. كيف تواجه العم وبناته بعد أن أكدت لهم أن نبيه سيخطبها؟ فوجئت بيد حانية ترفع رأسها، صاحب اليد يهديها ابتسامة حانية، صاحب اليد هو زغلول. تناست حزنها، ونهضت، وحيته بحرارة. مسحت آثار الدموع وقالت:

- الآن، وصلني نبأ وفاة صديقة لي، فبكيت...

أكذوبة لا بد منها، وانخرطا في حديث...

واستعادت معه ذكريات الصبا الحلوة، وقالت:

- كنت أحلم بلقاء معك منذ عرفت ياسمين...

استرجعت معه القصص الجميلة التي كان يقرؤها ثم يهرع إليها ليقصها عليها، كأنه سندباد يطوف بها عالما سحريا لم تره من قبل.

روت ظروف حياتها بعد وفاة أبويها، وروى لها ظروف كفاحه حتى حصوله على بكالوريوس التجارة.

- إنها مصادفة جميلة أن يعمل كلانا معا.

- تجددت الجيرة بأسلوب آخر.

وفي البيت، روت لعمها سعيد حكاية الشاب الذي سألته عنه، فلم يبد اهتماما. وأنبأته أن نبيه لن توافق عليه إذا جاء لخطبتها، وظنت أنها أنهت كل ما يدور في نفوسهم من تساؤلات حول موعد خطوبتها لنبيه، لكنها فوجئت بهيفاء تقول:

- نبيه عمل علاقة جديدة مع مها، التي أتت إلى النادي منذ شهر.

سفح الكبرياء الذي تحرص عليه. عرفت سر عزوف نبيه عنها. وفي الوقت ذاته استشعرت تفاهته. كما أثار دهشتها حال العم سعيد، الذي تراه لا يفرح لخبر، أو يحزن لآخر. مجرد صورة أنيقة لرجل لا يتحرك له جفن إزاء تعاظم الأحداث أو تضاؤلها. كما أن هيفاء وأخواتها لم يحفلن بفصم العلاقة بينها وبين نبيه، مثلما لم يحفلن بالعلاقة ذاتها. تولدت في أعماقها ثورة على هذا المجتمع المتحرر الذي صدمها في كبريائها. كما تولد لديها إحساس عارم بأن هذه الحياة لا تناسيها.

جلست مع زغلول. صارحته بكل شيء. أفاضت في الحديث، وارتاحت لمعشره. فوجئت به هو الآخر يعاني مرارة من مجابهة الواقع الذي يعيشه. يحاول أن يغير طبعه فيفشل. تضره صراحته المعهودة التي تجعل زملاء العمل يتحاشونه، فيجلس وحيدا، يعزف عزفا منفردا على أوتار الصراحة والصدق والمثابرة. من حوله تنعقد جلسات الشلل والجماعات، ويظل هو نسيجا وحده. يعاني المرارة من النفاق الذي يسود علائق الناس. أمسك يدها في حنان جارف، ورنا إلى عينيها الواسعتين السوداوين كأنه يستظهر في أعماقها روعة الأمل وحلاوة الحياة. قال:

- فلنتزوج.

شردت في البعيد، متجاوزة نظراته الفاحصة، فآلامه صمتها. قال:

- لعلي تسرعت في طلبي.

- لا ... ولكني أفكر في الوسيلة التي أزف بها الخبر إلى عمي سعيد... قد يرفضك لفقرك... اعذرني.

عادت إلى شرودها بعض الوقت، ثم استطردت:

- قد اضطر إلى مصارحة عمي مجاهد، وأعود للعيش معه، إن معيشته على قدر حاله. سيوافق.

ثار زغلول:

- دعك من مجاهد وسعيد، لماذا نعلق مصائرنا بهما؟ ألديك مانع في أن نصنع حياتنا بأنفسنا، بكامل إرادتنا؟

تملت النظر في جبهته العريضة، وقد تفصدت منها حبات العرق.

أومأت مبتسمة...

- أقول لك الحق... أحس الآن أني عدت إلى بيتي القديم، عدت إلى عالمي الساحر.

مجلة " الثقافة " – القاهرة – يونيو ١٩٧٨

الزمن ... والبرق... والفارس

تأوي إلى الفراش. تهدهد الأحلام. تطمئن القلب. تنقي شعاب النفس من الوساوس. الخوف يسكن مقلتيها. عيناها مذعورتان. يأتيها النوم بعد أرق مضن. تغور في أعماقها السحيقة معان متناقضة. ينشر الليل أجنحته الصارمة. يزعق الصمت بأنين مبهم؟! تواتيها فكرة عن البرق والرعد. ماذا لو انشقت السماء؟ البرق صاعق ... وميض خاطف... لماذا تخاف من البرق؟ سؤال ملح يجهد الذاكرة. لا تني في الكشف عن خباياه. لكنها أبدا خائفة. عيناها مذعورتان. أهدابها مرتجفة. ما حولها من دجى الليل يرسم قتامة موحشة. نباح الكلاب يمزق قناع الصمت. ترتعد فرائصها. من جديد، تجفل عيناها. تمني نفسها بنومة هادئة. قد يريحها النوم من بواعث القلق. ماذا لو صبرت؟ ماذا لو انتظرت ما يأتي به الغد؟ لماذا هي أسيرة اللحظة الماضية؟

جاء ليخطبها الفارس الذي يغويها في الحلم، له صورة مغايرة. فارس صارم الوجه، قليل الحديث، صاحب الرأي. وزائر هذا المساء، ثرثار، قليل الخبرة، يترك الرأي دائما للآخرين. إنه النصيب يا لمياء. ربت الأب على كتفها، في حنان جارف:

- الرأي لك...

- فيما بعد يا أبي. دعني أفكر.

وقلبت الأمور على شتى الوجوه. لماذا يسطر الخوف أحرفه الشائهة على صفحات العمر؟ ستقول نعم. لكن الخوف كامن في صدرها. أهو خوف من المجهول؟ أتاها حلم زاه. الفارس يركب الجواد الأشهب. يخطفها من فراشها. تركب معه الجواد. يتطاير شعرها. يحيطها بذراعيه القويتين. يخطو الجواد الفرح خطوات راقصة في وادي العرائس. كل من في الوادي عرائس حسان، كأنهن ملائكة أو حوريات الجنة. فجأة يومض البرق، فترتمي على صدره. يضمها الفارس في قوة، يعتصرها. الدفء يسري في كيانها. تفتح عينيها، فإذا الظلمة ناشرة أجنحتها السوداء، وإذا الحجرة كما هي... حجرتها!

تفيق من الحلم. عادت تفكر في حامد، الطارئ الجديد، الغريب عن عالمها. ماذا لو قالت: نعم؟ سيفرح الأب والأم والأخ. ستفاجأ العائلة بنبأ خطبتها. لكنه ضيف جديد لم تألفه. لكنه ليس الفارس، الحلم، القوي، الرجل.

- لمياء يا حبيبتي. شاب طيب، وابن حلال.

صوت الأم رقيق عذب.

تعيد التفكير في صوت أخيها رءوف، الطيب العطوف...

- محام في مستهل حياته، ووارث لبيت يحصل منه أربعين جنيها كل شهر.

تضحك ملء شدقيها. جزاك الله خير يا رءوف. ليس في هذا أفكر. الفارس يشاغلني. يدفئ فراشي. ينثر أحلامه الوردية. يبعثر الأماني من حولي. شيء مجهول يحثني على انتظار قدومه. قد يأتي في ومضة برق خاطفة. من جديد، يغزو الخوف مسارب النفس. لماذا الخوف دائما؟ قد يأتيها الفارس بارقا راعدا. لكنه الحلم الدفين، فعلام الخوف، والتوجس؟ فلتصبر، وتترقب، وتنتظر. ما عساها تفعل غير هذا؟ سيأتي ذات نهار. ستفرح لقدومه. سيبني لها بيتا في

حضن الوادي، كهذا الوادي الذي تراه في الحلم. وادي العرائس. تكاد تحس لفح أنفاسه. تكاد تتلمس الطريق إلى وجهه الصارم، الجهم. ستغير من عبوسه. ستلين ملامحه. ستلون قسماته. ستعيد التشكيل. لو يأتي يا لمياء هذه الليلة. دعي المخاوف.

وغلبها نعاس، بعد جهد جهيد.

أصبح صبح. أتاها صوت الأم القلق:

- يا بنتي، الله يهديك. أنا لا يعجبني الحال المائل.

يلقي رءوف تحية الصباح، ويردف:

- أتمنى أن نقيم فرحا عما قريب.

لمياء أنت حلوة الوجه والقسمات الشعر الذهبي كالتاج حول وجهك النوراني. عيناك نجلاوان، ضاحكتان. شفتاك رقيقتان، عذبتا الحديث. ما أحلى الجمال إذا كان بين يدي فارس. لو وافقت، هي المخاطرة والمجازفة. الوافد غريب عنك وعن أحلامك. تودد إليك برقيق العبارات، بلطيف البسمات، لكنك عنه عازفة، زاهدة. همست أمك لأبيك:

- أتمت الخامسة والعشرين.

كابوس الزمن جاثم على صدورنا، يقيد فرحتنا الغامرة بالحياة، يكبل اشتهاءنا لأماني الغد، يحطم رغباتنا المرتجاة في مستقبل الأيام. آه من كابوس الزمن! الأم قلقة. انتقل القلق كالعدوى إلى الأب والأخ. عزفوا جميعا سيمفونية الموافقة والقناعة. هم ينتظرون انضمامك إليهم. الجوقة تصدح موسيقاها. هل تآلفت نغماتها مع الحلم الساكن في جوارحك؟ البرق الغامض يرسم ظلالا حزينة في جوانب نفسك، يصحبه خوف وحذر. من جديد، يحطم كابوس الزمن الصورة الحلم. يهزم الفارس الهمام، يطرحه أرضا. يرديه قتيلا. فرحة الأسرة لا تعادلها فرحة. لماذا الوحدة يا لمياءنا؟ الوافد الغريب ستألفين صورته، فتقتلين الكابوس الجاثم. الزمن لا يمهل. الزمن عداد لا يتوقف ولا يرحم. الانتظار رهيب إذا جمدنا. الحياة حركة. الحياة تناغم وانسجام مع خيوط الواقع.

- موافقة..

كان صوتها مخنوقا مبحوحا. وأشرقت ابتسامة زاهية على وجوه الثلاثة، وزال عنهم القلق. زينوا البيت برايات الفرح كالنصر.

تمت إجراءات الخطبة، ومراسمها المألوفة. اقتربت أكثر من صورته. هو يخالف فارسها الهمام في كل شيء. الخطيب والفارس على طرفي نقيض. لا سمة تجمعهما. سبرت أغوار خطيبها. اسمه حامد، كان الأجدر أن يلقب بالراضي، فهو راض بكل رأي، منصت لكل حديث بابتسامة مصطنعة. الهدوء يشمله، لا يثور، لا يهب شيء مغيظ. سبرت أعماقه، فتجسدت لها الصورة كما لا تحب أن تكون.

عادت إلى دنيا الأحلام تستنجد بها من رتابة الواقع، القدر المقدر. لا... الفارس الجميل يناديها، ولا يمل النداء. تجتر كل ليلة صورته، تغازلها الصورة في الأحلام. تشاغلها في الفراش. تغويها، فتستمرئ الحلم. سيأتي الفارس، رغم الدبلة التي تخنق إصبعك!.. سيأتي مع وميض البرق الخاطف. يرتعد جسدها. لماذا الخوف من البرق، باعث الأمل بين سناه؟ ألأنه خاطف، هازئ بالزمن؟ ترعد السحب الداكنة رعدة سريعة، كأنها تقلق مخاض الأرض، كأنها تزيل هموم البشر.

يزورها حامد، تقعد قبالته، تمثالا مرمريا جميلا. يفوح العطر. تزهو الصورة، يتألق شعرها الذهبي. لكنها جامدة...

صامتة... شاردة... ما أسرع رقادها، تستدني الصورة الحلم، تزهو بها. انقلبت لمياء إلى وجه حزين، غلفه الشجن. تتردد تساؤلات صامتة بين الأب والأم والأخ، تترجمها النظرات القلقة، ولا أحد يجرؤ على الجهر بشيء. وحامد الخطيب، لا يشكو من شيء، فيلحظ لمياء لا يتكلم. ولا يهمس بكلمة عتاب. تستقبله بحفاوة رسمية، يتكلم فتنصت يجامل فتبتسم ابتسامة باهتة، ولا جديد يلوح في الأفق. لمياء تفقد شهيتها.

لا تأكل إلا بضع لقيمات، ولا تتحدث إلا بضع كلمات.

وزارها الفارس، واقعا وليس حلما. أصلا وليس صورة. الفارس الجالس قبالتها، يشبه من تحلم به. جامد الملامح صارم الوجه. خشونة تمثلت في صوته الجهوري، وشعره الكثيف في صدره وذراعيه. شعر رأسه غير منتظم، خشن، لا ضير. تمنت لو تتيسر لها إعادة تكوين وجهه! أن تجعله صورة مغايرة، فتلين ملامحه، وتزرع الابتسام على قسمات وجهه العابس. أتاها صوته، مندوبا عن إحدى الشركات. يستقصي بعض البيانات. طال الحديث، وتكرر في الزيارات التالية. قص عليها آماله. هو يتمنى أن ينمي عمله الحر،

وينشئ شركة مقاولات كبيرة. سرد لها تفاصيل الأمنية. في صوته ثقة وتفاؤل، وفي ملامحه إصرار وتصميم. هو الفارس الحلم. هو الأمل. فلتنفض الخطبة الهزلية. فارسها أتى، حالما، آملا. تخلع الدبلة، وتلقيها في يد أمها:

- لا فائدة...

وصل الصوت إلى سمع أمها قويا واثقا.

خاب مسعى الثلاثة. جاهروا بما ساورهم من قلق. كانت الصدمة التي قطعت الشك باليقين. لمياء لا ترغب في هذه الزيجة. الإلحاح لا يجدي.

أتاها الفارس المنتظر. جلس قبالتها ينهي ما تبقى من أعمال، يواصل الحديث عن نفسه، وآماله. بدأت تتقرب إليه. تنطق اسمه مجردا، رافعة كل كلفة بينها وبينه. حدثته عن نفسها، وحكاية خطبتها الهزلية من شاب لم ترق لها شخصيته. أنصت مليا، ثم... حدثها عن أسرته، وكيف بدأ اللقاء الأول بزوجته!...

صدمت لمياء. فارسها متزوج. يحب زوجته. يرجع إليها الفضل في آماله الواسعة!

تسأل بصوت مخنوق مبحوح:

- أين الدبلة؟

- أنا رجل متدين، وأعرف أن الرجل ينبغي ألا يتزين بالذهب. فهمت زوجتي هذا، ولم تغضب.

أتاها الفارس، ومضى سريعا. أتاها في الواقع، برقا وامضا خاطفا، وانتهت قصته قبل أن تبدأ، ولا تعرف زمنا فاصلا بين البداية والنهاية، كما البرق الذي يقلق مخاض الأرض برعده، قد يضيء ضوءا ساطعا، وقد يصعق صعقا قاتلا. وبكت. بكت كما لم تبك من قبل. ضمها صدر الأم الرءوم. ربتت على ظهرها دون أن تفهم حكايتها مع الفارس الهمام، الحلم الزاهي، والواقع الأليم.

يأتيها صوت الأم حانيا. رحيما، عطوفا:

- حامد رجل طيب. سعى مرارا لتعود المياه إلى مجاريها.

انبجست عيناها بأنهار الدموع، وفاض لسانها بكلمات كثيرة، كأنها في حاجة إلى إعادة ترتيب... لم تفهم الأم ما تقصده لمياء... لكنها سمعت الكلمات الثلاث : الزمن ... البرق ... الفارس... وكانت مختلطة بكلمات أخرى، وممزوجة بشهقات وتأوهات...

مجلة " الكاتب " – القاهرة – مايو ١٩٧٩

عزف منفرد على أوتار الحب

عبر أسلاك الهاتف، أتاها الصوت الحبيب.

- فتحي.. الحمد لله أنك موجود.. كنت خائفة.
- لِمَ يا فاطمة؟
- فتحي.. أريد أن أراك.. ضروري يا فتحي..
- كل لقاء بيننا، أصبح ضروريا، ومهما.
- في هذه المرة، ضروري جدا.
- ممكن أعرف..
- لا أقدر.. يتهيأ لي لما أراك، سأعرف ماذا أقول.
- طيب.. متى؟
- الساعة الثامنة في النادي.
- حاضر.. مع السلامة.

وأحست براحة. أدارت المذياع، فشنف أذنيها عزف منفرد على العود. إنه يحاكي وحدتها. يشجيها النغم، كأنه صدى صوت ذائب في أعماقها. أرهفت السمع إلى العزف، كأنه ترتيلات سماوية، أو أغنيات حب ووفاء.

تقف أمام المرآة، تصبغ شفتيها، وتعطي لعينيها بريقهما... ثم تمشط شعرها الذهبي، كأنها تجوس بمشطها العاجي أسلاك الذهب... رأت وجه أمها على صفحة المرآة. أتاها صوت الأم خفيضا وعلى شفتيها ابتسامة هادئة:

- أراك سعيدة.. شكرا لله.. أخيرا وافقت.. صدق ظني بأن الأيام كفيلة بإصلاح كل شيء.

لم تعلق فاطمة.. أردفت الأم:

- سيزورنا صلاح الليلة.

أكملت تمشيط شعرها. قالت الأم:

- من الأفضل أن تذهبي إلى الكوافير.

- لِمَ؟

ارتابت الأم. تنهي فاطمة تمشيط شعرها. تساوي البلوزة، وتتناول حقيبتها..

- أنت خارجة؟

- أجل..

ضربت الأم كفا بكف..

- يا لطيبتي!.. ألا تفهمين؟.. إنه ينوي شراء الشبكة .. اتفقت معه أمس..

تسمرت عند باب الشقة قليلا، ملتفتة إلى وجه أمها الحين، قالت:

- لن أتزوج.

وحين همت بنصحها، كانت قد أغلقت الباب دونها.

انتظرت فتحي في النادي. أخرجت رواية من حقيبتها. حاولت الاستغراق في القراءة، ومن حولها يضج المكان بالصخب والضجيج. ضحكات تنطلق من مكان قريب. ودت لو يجيء فتحي وتبادله حديثا مرحا. طلبت كوبا من الليمون. أطلقت لخيالها العنان. تفكر في الحياة التي تخلو من المتاعب. تمنت أن تعيش في جزيرة صغيرة منعزلة عن الناس، مع فتحي ذي العينين السوداوين، والملامح القوية التي تتجسد لها كظلال للإرادة. ضايقتها الضحكات التي تتناهى إلى أذنيها. تمنت لو تموت هذه الضحكات. يعزف

العود نغماته الحزينة الشجية، وكل من حولها صامت منصت.

حين جاء فتحي. استقبلته الفرحة في عينيها الزرقاوين. غرقا في حديث لا ينتهي. زال عنها الاكتئاب. سادت فترة صمت قصيرة. فكر في السبب الذي من أجله طلبت اللقاء. لكنه لم يستفسر. شغل نفسه بعينيها الزرقاوين، ثم بفتاتين تلعبان الراكيت. ودت لو يتركها بمفردها تكتب له ما تريد، هذا أقرب إلى طبيعتها.. ما زالت تزهو بنغمات العود الشجية، ما زالت تنتشي بها.. سألت:

- ألا تحب الموسيقى؟
- أحيانا أحب الاستماع إليها.
- من الأفضل أن نعشق الموسيقى.
- أحاول.

شردت قليلا..

- أتمنى أن أتعلم الموسيقى. إنها عالم جميل.

ابتسم فتحي..

- طلبت مقابلتي كي تحدثيني عن هوايتك الجديدة، لا بأس..

- أنت كثير التهكم، وهذا يعيبك..

- تعيبني أشياء كثيرة، ربما التهكم أخفها..

- يا ساتر..

منذ أيام، حدثها عن رغبته في الزواج، وكان أمرا متوقعا. إلا أنها تخاف من حبه.. لا تدري لماذا؟.. إن عينيه السوداوين تخبئان شيئا مبهما في أعماقه. حدثها ذات مرة عن الجحيم الذي عاشه مع زوجة أبيه، وكيف نظر إلى الحياة بقلق وخوف. لم تكن زوجة أبيه قاسية، ولكن حنانها الممزوج بالشفقة، وحبها المصحوب بالعطف.. دفعاه إلى مقتها! لقد حلت مكان أمه التي يعي تفاصيل ملامحها الدقيقة، رغم أنها ماتت وهو صغير.

انصرف عنه أبوه، واهتم بزوجته. امتزج حنان زوجة أبيه بقسوة الأب المتمثلة في إهماله إهمالا يكاد يكون تاما.

أمعنت النظر في عينيه السوداوين، كأنها تقرأ فيها طفولته المعذبة. ويصمت فتحي. تعبث يده بصفحات الرواية. يقرأ سطورا متفرقة من البداية، ثم يقفز إلى سطور الختام.

إنه من طراز عجيب. يحاول التعرف على القصة في خمس دقائق! هكذا أسلوبه في الحياة. أحلامه عريضة، يتمنى تحقيقها كلها في الغد!

رجعت إلى البيت، وقد ذابت كل مشاكله. تشعبت روحها بالمرح، ولاح البشر على محياها. همست الأم:

- كذبت على صلاح. قلت له إنك ذهبت إلى خالتك المريضة!

صمتت ولم تعقب..

- اقترحت عليه تأجيل شراء الشبكة.

- ماذا قال؟

- كان حزينا. قال إن حظه سيئ، ودائما يندب الحظ الذي يناصبه العداء.

- طبيب مشهور ناجح، ويشكو من سوء الحظ؟

ماتت والدته قبل تخرجه بأيام قليلة. كانت أمنيته أن يقرأ الفرحة في عينيها.

- يبدو أنه قص عليك تاريخ حياته.

- إنسان وحيد، وهو الوريث الوحيد لثروة أبيه الضخمة.

- لست أبحث عن المال.

هل تندب حظها؟ لماذا اختار لها ذلك الرجل ذا الحظ العاثر؟ ألتزيده تعاسة؟ هل يحبها صلاح مثلما تحب فتحي؟! أم كأغلب الشباب، يطرق الباب طالبا زوجة تشاركه حياته؟ هل ينجح زواج دون حب؟ هل يتولد حب دون لقاء؟ لا شك أنه يبحث عن الزوجة المناسبة. رن جرس الهاتف. هرعت إليه بقلب خافق، وكان فتحي.

- أحببت أن أسمعك موسيقى هادئة. عثرت على أسطوانة أجنبية، ظلي على الخط، وعلى الله تعجبك.. أتمنى أن أعشق الموسيقى مثلك.. على كل حال أنا تلميذ شاطر.

وتناهت إلى أذنيها أنغام هادئة كأنغام التانجو. لكنها لم تمس شغاف قلبها. شردت في هذه اللحظة عن الموسيقى. تغلب القلق العاصف على تلك النغمات الرتيبة. ألقت السماعة على المنضدة فترة، ثم عادت الإنصات، لعلها تبدأ. زعقت:

- فتحي.. فتحي..

حضرت الموسيقى في سمعها صوتا ثقيلا. صار كالطنين تختزنه الأذن، ويثقل رأسها. انتابها صداع مؤلم. سكتت الموسيقى، وكأنها إنهاء الحالة اضطراب. نادت من جديد، فأتاها صوته:

- ما رأيك؟

- يا فتحي لماذا لا نتزوج؟

- كل شيء بأوان.

- ماذا تقصد؟

- أحاول إقناع والدي.

- يعني..

- أرجو ألا تسيئي الظن بي. أنت أدرى بما في قلبي، لكن يجب التمهل، حتى تتحسن الظروف.

- يا فتحي قلت لك ستين مرة ممكن نعيش بدون ثروة والدك.

- لو حرمني والدي من ثروته، أبقى ولا حاجة.. ماهيتي شوية ملاليم.

- وماهيتي.. نقدر نعيش على قدر حالنا.

- لازم نعيش في مستوى أحسن.

- حبنا في خطر يا فتحي.. والدتي تريد أن تزوجني من طبيب غني.

- أنا محاسب فقير.. طبعا إذا تقدمت لوالدتك سترفض، لا يمكن والدتك تفضلني عليه.

- لكن أنا موافقة.

- يعني نتزوج في السر؟

بكت فاطمة. قالت والمرارة تغلف صوتها:

- ماذا نفعل؟ .. حيرتني.

- من ناحيتي أنتظر قليلا حتى أقنع والدي، ومن جانبك، يمكنك رفض الطبيب، إذا شئت..

- الحب لا يعيش إلا بالتضحية..

- الحب لا يعيش في ظل الفقر..

ثم أردف:

- نسيت أسألك عن القطعة الموسيقية.

- لم تعجبني.

- غريبة.. مع أنها أعجبتني جدا.

- ربما.. نكون مختلفين.

غالبتها الدموع، فوضعت السماعة والألم يمزق قلبها.

حين تجاذبت الحديث مع صلاح، اكتشفت أنه جاف التعبير، لا يحسن اختيار اللفظ المناسب. يعقب على كل جملة بضحكة قصيرة تنم عن افتعال المرح، بينما النفس خاوية.

_ ألا تؤمن بالحب؟

- أؤمن بالحب؟

- والعاطفة؟

- لغة الشعراء والحالمين.

- العاطفة لازمة لكل إنسان لزوم الماء والهواء.

- ليست كل شيء.

- كيف تنكر العاطفة، وأنت طبيب كل دراستك عن القلب؟

- ما علاقة دراسة القلب بالعاطفة؟

- علاقة أبوة.. القلب عصب الأحاسيس.

- ربما.. لكني أعرف أن القلب عضلة قابضة تستقبل الدم غير النقي، ثم تدفع بالدم النقي إلى جميع خلايا الجسم.

آثرت الصمت، وكان صمتا مكرها. انهمرت الدموع من عينيها بلا حساب. صمت قليلا وقد باغته هذا البكاء، ثم قال:

- آسف يا فاطمة. لست أعرف أنك متحمسة لعاطفة الحب إلى حد البكاء!

- ولست أعرف أنك متحمس للعلم إلى حد البلاهة!

مسحت بقايا الدموع، ثم بادلته نظرات صامتة..

- آسفة يا صلاح، لست أقصد هذا التعبير القاسي. لكن لماذا اخترتني كي أكون شريكة حياتك؟

- لأنه اختيار مناسب وإذا لم يتحقق أملي في أن تكوني زوجتي، فسيتأكد لي حظي العاثر..

يتهيأ لها أن بداخله – رغم حديثه الجاف – قلبا ينبض بالعاطفة. مرهف الحس، رقيق الشعور. لماذا إذن يبدو أمامها بهذه الصورة الجامدة؟ لماذا يتنكر للحب؟ أم أن الحب في هذا الزمان أسطورة الشعراء والحالمين؟ طافت بمخيلتها صورة فتحي، الشاب الطموح، لكنه عنيد، يؤجل زواجهما من أجل ثروة أبيه. يهمه أن يبارك الأب الزواج، أو لعله يتحجج حتى يحل نفسه من رباط الحب الذي ينتهي بوثيقة

عند المأذون؟ أحست بصداع. تساءلت من جديد : هل الحب في هذا الزمان أسطورة الشعراء والحالمين؟

ألقت جسمها المتعب على الفراش، وراحت في عالم من صنع خيالها. لكن الأم فاجأتها.

- يبدو أن قلب الأم يحدثني عما بداخلك. لعلك تقارنين بين فتحي وصلاح؟ تفضلين أحدهما..

- ليس واحدا من الاثنين.

- حب جديد؟

- لم يولد بعد مثل هذا الحب. لم يجئ أوان الزواج بعد.

- متى يجيء الأوان؟

- لست أدري متى يجيء. كل ما أعنيه أن الأوان لم يحن بعد للزواج. هذا كل ما في الأمر.

شردت عيناها من خلال النافذة المفتوحة في البعيد، وشعرت بحنين جارف إلى سماع نغمات العود الشجية. ودت لو تعزف على أوتار العود تلك النغمات الحزينة التي يئن بها صدرها.

مجلة " القصة " – القاهرة – العدد ١٤ ديسمبر ١٩٧٧

الانتظار

يود أن يهرب من هذا العالم، إلى أرض جديدة، ودنيا جديدة تعقدت السبل، وتأزمت الأمور. دائما يسأل نفسه حائرا: أي مستقبل تأمل فيه؟.. وما الطريق إليه؟

خلال سني الدراسة، كان مرحا، طليقا. يهزأ ممن يختلقون المشاكل، هكذا يرى. الآن أصبح قبالة مشكلة المشاكل، فأي طريق يختار؟ وبات يرى حياته لغزا غامضا.

بعد تخرجه، عين مهندسا في أحد المصانع، وأفصحت الأم عن أمنيتها:

- أنا اخترت لك نعمات..

يومئ بإيجاب، إرضاء لأمه، ولو سأل نفسه: هل نعمات مناسبة؟.. فلن يهتدي إلى جواب قاطع. ينظر إلى الزواج كعلاقة مصيرية. إذن هي مسألة خطيرة. من الحكمة تأجيل الزواج. ذات مرة، حين زينت له نفسه الاستعداد للزواج، أخذ يحسب تكاليفه، فتعدت الألفي جنيه.. شبكة ومهر وهدايا من ناحية، وبوتاجاز وسجاد ونجف ومطبخ من ناحية أخرى.

ولكن أنى له الألفي جنيه، ورصيده لم يتزحزح عن الصفر! وإذا ما افترض توفير راتبه كله، دون أن يصرف مليما واحدا، فيلزمه الانتظار خمس سنوات حتى يتحقق ما يريد.

صرف النظر عن فكرة الزواج، وطمأن نفسه حين اكتشف أن نعمات لا تناسبه. نعمات كثيرة الاختلاط بالناس. تستميلها الحفلات والنزهات. تسخر من التقاليد التي تقف للبنت بالمرصاد دون الولد. تناقشا ذات مرة حول المساواة بين الجنسين. قالت:

- ما زالت البنت مقهورة. ما زالت ممنوعة من السهر خارج البيت، بينما الولد يلهو كما يشاء.

لعنت ضعف الرجل الذي يتذرع بالتقاليد حتى تظل البنت مقهورة والرجل هو السيد.

راجع آراءها الجريئة، فكيف يقنعها بأن تكون زوجة شرقية تحترم التقاليد؟

عرض عليه ممدوح أن يعمل معه في محل لإصلاح التلفزيون، واستطاع بعمله أن يرفع كفاءة العمل. يذهب إلى المحل في المساء، ويقضي حوالي الساعتين يصلح بنفسه

بعض الأعطال، ثم يعطي مشورته الفنية لممدوح ومساعده، ثم يصحبه ممدوح إلى بيته لتناول العشاء، فيقضي وقتا طيبا مع أسرة ابن عمه.

هكذا تمضي أيامه.. ما بين الذهاب إلى المصنع صباحا، والمحل مساء، ورضي بهذه الحياة.

إلى أن جاء يوم.. طالع وجها نورانيا، يتميز بسواد العينين، ورقة الشفتين، وحلاوة الصوت. شده السحر الكامن في عينيها. وأصبح لا يطيق فراقها. سألها ذات مرة.

- ماذا أكون بالنسبة لك؟

دمعت عيناها، وعاتبته، فصمت صمتا محيرا، ثم قالت:

- تكون الحياة الحلوة. بودي لو ألازمك ليل نهار. لا أطيق فراقك أبدا. أريد أن أجلس معك، وأعمل لك أي شيء، حتى لو أقرأ لك جريدة، أو أجهز لك غداء.

لازمته كظله. حين يذهب إلى المحل يجدها في انتظاره. وحين يذهب إلى شقة ممدوح لا تعدم الحيلة في الزيارة الجلوس معه. تنزها في كل مكان، وشاهدا الأفلام، بل أصبح كل منهما يحتكم إلى ذوق الآخر في ابتياع حاجياته الشخصية. صارت الحياة في شفتيهما حلوة المذاق.

وجاء يوم، كانا يجلسان في " كازينو " مطل على النيل، يتناجيان كعصفورين طليقين. أكد لها حبه، وباحت بعواطفها.. ثم سألته:

- هل تتزوجني؟

كان السؤال مفاجأة. وجم. توزع انتباهه. زاغت عيناه في كل الاتجاهات.

- آسفة يا وحيد.. آسفة لإزعاجك.

ارتبك. لملم شتات أفكاره. زرع ابتسامة ما على شفتيه:

- أشعر باحتياجي إليك. إذا كان الزواج هو الحل، لا أمانع.

كلمات فاترة، صاغها المنطق.

- أهو رد لبق، ممن يخشى التورط؟

- أتسمين علاقتنا ورطة؟

- أتساءل..

عاد إلى شروده. هل تصلح زوجة؟.. لا.. لا تأخذ الأمور من هذا الجانب. أنت لا تستغني عنها. الزواج لا مفر منه. لكن كيف السبيل الآن؟ للزواج تكاليفه. قفزت إلى

مخيلته حسبة الألفي جنيه. تململت في جلستها. قالت بصوت الأنثى الضعيف:

- هيا بنا..

كان صوتها من الضعف بحيث لا تستطيع النطق بكلمات أخرى، حتى لا تفضحها دموعها المتحفزة. شغل بدفع الحساب، بينما أشاحت وجهها بعيدا. مسحت بأناملها المرتعشة دمعتين تمردتا على كبريائها. استعادت هدوءها، رفعت رأسها وطوحت شعرها المنسدل إلى الوراء.. بدت كما لو أن أنفها يدنو من السماء.

رجعا والصمت يكبلهما بقيد غليظ، وافترقا، بعد أن نثرا في الهواء البارد بضع كلمات ممزقة.

حاول ترتيب الأفكار، باتزان وتعقل.. قفزت إلى ذهنه صورة نعمات. قارن بينها وبين هدى! لنعمات طباع لا يرضى عنها. لكنها ابنة خالته، وترضى عنها أمه. أما هدى، وأسهم قليلا، ثم خطر بباله أنها علاقة طارئة ساقته إليها الظروف، وقفزت إلى ذهنه تكاليف الزواج، فانتابه قلق، أحس أن نعمات تناسبه، ولا شك أن خالته تعرف أحواله المالية، لن تفرض عليه أكثر مما يطيق.

أصبح الزواج من الأمور المقلقة التي تشغله ليل نهار. وحين عرضت عليه أمه – مرة أخرى – الزواج من نعمات، وافق، وأسرعت الأم تخبر أختها. ذاع الخبر في محيط العائلة، أيقن الجميع أن وحيدا ونعمات مخطوبان، وإن لم يضعا دبلتي الخطوبة في إصبعيهما.

زاره ممدوح ليسأل عن سبب انقطاعه. وعده بالحضور. يطوف بمخيلته وجه هدى النوراني، يشده الحنين الظامئ إليه.

أثناء غياب وحيد، كانت هدى تراقب المحل من النافذة، ينعش الأمل صدرها بعودته ذات يوم. وبرغم جرحه لكبريائها، إلا أنها تنتظره.. ولا تمل الانتظار.. وحين عاد، أغلقت نافذتها، ورقدت على الفراش باكية. عاوده اكتئاب حين نشر الظلام ظله الثقيل، ولما يلتق بعد بهدى. سأل ممدوح:

- ما بك؟
- لا شيء..

بعد فترة صمت قلقة، سأل:

- كيف حال هدى؟

- بخير..

علت علامات الدهشة وجهه. وتمهل وحيد وهو يقول:

- لا أريد أن أخفي عنك مشاعري.. أنا أحبها..

صمت ممدوح، ثم قال والدهشة لا تزال عالقة بحاجبيه الكثيفين:

- ونعمات؟

- هذا ما يحيرني. لكني أؤكد لك أني أحب هدى. أرجو أن تساعدني. أشعر أنها قدر مكتوب. سألتني ذات مرة إن كنت سأتزوجها. أحيانا نتصرف بغباء. باسم التعقل والاتزان، نبيع عواطفنا!.. ثم نسفح دموع الندم!

- ماذا تريد بالضبط؟

- أن تكون حمامة سلام بيننا.

هرع ممدوح في الصباح إلى والد هدى، وصارحه برغبة وحيد في الزواج. رحب الأب، واتفقا على أن يحضر في أي وقت يشاء.

طلب وحيد من أمه أن تعتذر لخالته! لكنها صرخت في وجهه:

- أتريد أن تهزأ بأمك!.. الكل يعرف أنك ستتزوج نعمات.

ماتت الفرحة في قلبه. أخرس صوت العاطفة، ولاذ بعالم الصمت الرحيب. عاش حائرا بين نعمات وهدى.. أيهما يختار؟ وفشل في اتخاذ قرار. بدأ يلتقي هدى، وقد أخفى عنها الجانب الآخر. لم يستطع الابتعاد عن هدى، أو الاقتراب من نعمات!

طالت حيرته بين الاثنتين.

حيت يوشك أن يحسم الأمر، تزداد حيرته، وتعظم تساؤلاته. لكنه كالطير الأخرس. ما زالت حسبة الألفي جنيه تطن برأسه. وأمه تنصحه بضغط المصروفات حتى يستطيع الإقدام الفعلي على خطبة نعمات من أبيها.

هدى تنتظر أن يتوج الحب بالزواج.

ونعمات تنتظر أن يبر بالوعد..

وأمه تنتظر، ولا تشك في صدق نواياه..

وممدوح ينتظر، ولا يشك في صدق نواياه..

أما هو، فعاجز عن فعل شيء. تكاد تفتك به عواصف الحيرة.

وعاش في قلق مستبد.

أخيرا، فكر في العمل بالخارج. سعى في الخفاء، حتى حصل على عقد عمل بالسعودية. لم يخبر أمه إلا ليلة السفر. انزعجت للمفاجأة. ثم نصحته بقراءة الفاتحة قبل السفر. وعدها بحسم الأمر في أول إجازة، وسافر في الصباح دون أن تعلم هدى.

تلقى من أمه الردود على رسائله، في كل رسالة تؤكد له أن نعمات في انتظاره.

بعث برسالة إلى هدى، ولم يتلق ردا، فكتب رسالة ثانية وثالثة.. ولم يتلق ردا.

أمه تنتظر عودته، وهو ينتظر رسالة هدى.

يطول الانتظار، والأيام تمضي.. وفي كل يوم، يطمئن على رصيده المالي. تعدى أمله الألفي جنيه المتواضعة. أصبح يأمل في أن تزيد ثروته على العشرة آلاف جنيه لكن القلق العاصف زامله كظله في كل خطوة يخطوها.

جريدة " الثقافة الأسبوعية " - دمشـق – ٤ نـوفمبر ١٩٧٨

قمر الحب

من نافذة غرفته، حيث يسهر مع فرشاته، يطل عليه القمر، من بين غيوم وسحب. يرنو إليه، معجبا مزهوا.. صورة خلابة، يضفي عليها سكون الليل تكوينا بديعا يموج داخل نفسه. منذ كان طالبا يدرس الفنون والصورة القمرية تشاغله، تملأ عالمه. حتى تشكلت في مخيلته صورة بديعة. يداعبه حلم زاه برسم اللوحة، لكنه يتأنى ويتروى، حبا في أن تكون أجمل اللوحات. كل مساء، يضيف رتوشا إلى اللوحة المنطبعة في مخيلته.. هذا القمر الخلاب، مرة يبدو ضاحكا ملء شدقيه، وأخرى باكيا ملء مقلتيه.. كأنه يشارك سكان الغبراء ما هم في من حال لا يستقر.

يمسك بفرشاته.. يرسم اللوحة.. كما رآها وأحس بها.. شجعه على رسمها، ذاك الوجه المطل عليه من الشرفة المقابلة، وجه الحسناء الفاتنة. يقضي ساعات الأصيل رانيا إليه. حسناؤه هادئة الطباع. تجلس وتقرأ كتابا ما. قلما

يتصادف أن تلتقي النظرات. ظل من بعيد يرقب هذا الوجه كل مساء، حتى يغيب عن ناظريه خلف ضلاف النافذة الخشبية.

يطل عليه القمر، فيرنو إليه، كأنه يستعيض به عن وجه فاتنته، ويكمل المساء معه. وبقلبه الرهيف وحسه الشفيف، يترجم فؤاد أحاسيسه تجاه الفتاة بنظرات إعجاب وافتتان بالقمر!.. ظل يداعب فرشاته، راسما بخطوط انسيابية أشبه بخيوط الحرير، تلك اللوحة الطبيعية. وحين أحب أن يرسم وجها للقمر، احتار في رسمه. هل يرسمه ضاحكا أم باكيا؟ استقر أخيرا على رسم وجه. ثم رسم سحابة خفيفة تغشى وجه القمر، وإن كان مطلا بين الغيوم بضحكته. واستغرق في رسمها قرابة الشهرين.

تزهو في أعماقه صورة حلوة لجارته الفاتنة ندى.. يخايله خاطر يحبب إليه لقاءها. لا تكفي النظرات عن بعد. ألا يكفي ذلك القمر المطل من السماء العالية؟ أحب وجه القمر وهو كبد السماء، وأحب وجه ندى وفتن به، من تلك النظرات المتبادلة عبر نافذته وشرفتها، ولا شيء أكثر من النظرات.

بعد أن وضع اللمسات الأخيرة على لوحته، سماها " قمر الحب " . الاسم يربط بين وجه القمر ووجه ندى. ولكن.. هل صارت ندى حبيبة؟ هل يكتفى في الحب بالنظرات العابرة؟

وفد من قرى الصعيد، واستقر به المقام في تلك الغرفة الضيقة. لا أحد يؤنس وحدته، يشاركه حياته. لا أحد يطرق باب غرفته. وأحاط نفسه بسياج العزلة، هذا أقرب إلى طبيعته.

ظلت ندى فتاته الحالمة، وشغله الشاغل، يرعاها في فؤاده، ويطمئن عليها في عالمه الصامت. يحلم بها بين ذراعيه، ويرتقي بها في خياله مدارج الكمال. ما إن يرد ذكرها على لسانه، حتى يخفق قلبه خفقانه السريع المتلاحق.

وبات طبيعيا أن يراها كل يوم من نافذته..

ظل على إعجابه الصامت، يشيع في صدره الراحة والصفاء، ويسري في دمائه الطهر والنقاء.. حتى أنه تمادى في خيالاته، ورسم لها صورة ملاك سماوي يرفل في ثوب أبيض. فما أحب أن يلتقي بندى على أرض الواقع، مؤثرا الاحتفاظ بصورتها الحالمة التي تبث الراحة في نفسه. تكمن

سعادته في الإلهام الذي أوحى إليه برسم اللوحة، وعشرات مثلها من تلك اللوحات المشبعة بالخيال الأسطوري.

ثم أتى عليه ليل بلا قمر!..

يطل من نافذته فلا قمر على صفحة السماء، ولا فتاته ندى جالسة بشرفتها، فقضى ليلته مؤرقا مسهدا. ولم يواته نوم.

يلح على خاطره سؤال: لماذا تعترينا الرغبة في البكاء؟

حديقة الشتاء، يذبل فيها الورد، تصفر أوراقها الخضراء. حديقة الشتاء تشكو زائريها ما أصابها من عري وتجريد. حديقة الشتاء ترسل أنات الحزن، ولكن بلا دموع.

يتهامس الطير بين الأشجار بصوت مخنوق: لماذا تعترينا الرغبة في البكاء؟

يلملم شوارد أفكاره مغلقا نافذته بعد أن ملّ الانتظار. وندى، الوجه الحالم الغائب، لم يظهر في الأمسيات التالية. خيم الحزن، وانتشرت من حوله خفافيش الظلام.

ذات ليلة، ينهض من نومه مذعورا، ثائرا، ملتهب الحس، مضطرب القلب.. فلم تزل ندى تشيع الأمل والحب والنور.. لم تزل ندى للقلب نبضه وحياته.

تزهو في مخيلته لوحة رائعة لقمر الحب، وبدلا من ذلك القمر المطل من صفحة السماء يرسم ندى وجها قمريا ضحوكا. ومن جديد، يمسك بفرشاته، راسما بخيوط حريرية انسيابية، صورة ندى القمرية. وبدلا من السحب والغيوم التي تكتنف الوجه وتحيط به، يرسم خيوط الشعر الحريري الناعم، متموجان على شكل طيات متلاحقة، كأن كل طية تثب لتسبق الأخرى. ورسم على الشفاه ابتسامة هادئة، فأصبح الوجه ضحوكا كالقمر. ثم رسم دمعتين على خدين متوردين، لا تكادان تبدوان للناظر.

وأطلق على لوحته اسم " خلود " . فهل يقصد به خلود الحب، أم خلود الجمال، أم أنه يقصد رسم ملاك سماوي سيئوب إلى التراب؟!

استغرقته اللوحة.. تواتيه الرغبة في إكمالها حين يرى ندى. ويعزف عن ذلك حين تغيب عنه. مضت أيامه بين مد وجزر. اكتملت اللوحة، وفتن بها وبألوانها. حفظها في مكان مكين. واعتبرها درة غالية لا يفرط فيها أيا كانت الأسباب.

الدنيا يا فؤاد لا تستقر على حال..

الدنيا تدور..

كل شيء في الدنيا يدور..

حقيقة علمية، مؤكدة، ومبرهنة.

كل شيء في دنياك يتحرك.

وعالمنا موار، لا يستقر ولا يهدأ.

ثم أطل على الدنيا ليل بلا قمر.. لكنه ليل طويل لا يعرف له آخر. بدأ ظلامه حين أظلمت الشرفة، حين باتت خالية جرداء. وتسلل الظلام إلى شعاب نفسه مع تعاقب النهار والليل. حتى القمر المطل عليه من السماء العلية، بدا باكي الوجه. مكفهرا، مشاركا صاحبه الأحزان.

فهجر فرشاته، واعتراه هم ثقيل.

ويأتيه جاره " رفيق " بالخبر اليقين. تزوجت ندى من ثري عربي، وسافرت معه إلى بلاده. لم يشأ أبوها أن يقيم حفلا، أو يذيع خبرا، مؤثرا إتمام الزواج في صمت. لاحق فؤاد جاره بأسئلة واستفسارات، لكن رفيق لم يكن يعرف أكثر مما قال.

أراه اللوحة، فأعجبته..

- رائعة..

قالها وهو منبهر بجمالها.

قال فؤاد:

- فيما يبدو أنها تزوجت رغم أنفها.

- ربما..

بعد فترة صمت، استطرد رفيق:

- هل كنت تحبها؟

- لا أعرف.. لكني فتنت بجمالها.

وأكمل فؤاد رحلة الحياة مفتقدا الأنيس الصامت الذي كان يطل عليه، نموذجا رائعا للجمال. وكان أروع ما في صورة ندى صمتها!.. فاستهام بهذا الصمت، الذي أشاع عنده الإحساس الدفاق بالجمال. يرى في الصخب وفي الكلام عامل إحباط يفسد الصورة الجمالية، بينا يشكل صمت التماثيل والرسوم والصور جانبا من جوانب الجمال.

غاب عنه الأنيس الصامت..

وواصل وحده رحلة الحياة، ولم تزل صورة ملهمته منطبعة في خاطره. يود أن يرسم لها عشرات اللوحات، لكن الأمنية أحبطت.

وتمر سنوات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة. فينتقل فؤاد من غرفته الصغيرة الضيقة، إلى شقة أكثر اتساعا، ولم يزل عزبا، لا يفكر في زواج، مرتضيا زواج الفن. وذاعت شهرته، حتى ذكر اسمه في أعمدة الصحف، فنانا مرموقا.

يقيم معرضه الأول، فيطبع بطاقات دعوة مرسوما على غلافها رسما مصغرا للوحته " خلود " ، رسما مصغرا لوجه ندى شعرها المتموج على جانبي الوجه.

يتوافد العشرات من محبي الفن. ويكون حصيلة المعرض بيع لوحات كثيرة، لكنه لم يشأ بيع لوحة " خلود " ، التي كتب عليها لافتة " للعرض فقط " .

تكثر أسئلة الزوار حول " خلود " معجبين بها، مفتونين بجمالها وتناسق ألوانها. وعرضت عليه مبالغ مغرية، فما فرط فيها.

وفوجئ بجاره بالقديم " رفيق " .. يحييه بحرارة.. ويستعيد معه بكلمات مختصرة ذكريات الحي القديم، أيام كان طالبا يدرس الفنون. ثم يتطرق الحديث إلى ندى.. يعقب رفيق:

- أراك تضع " خلود " في مقدمة لوحاتك.. ألا تريد معرفة أخبار ملهمتك؟

- ماذا عنها؟

- عادت إلى مصر منذ شهور. لم تنجب من زوجها أولادا. وطلبت منه الطلاق فطلقها.

- في نفس الشقة؟

- وتجلس في نفس الشرفة.

يشرد فؤاد..

عبق في الجو عطر قديم محبب إليه. ارتحل إلى الماضي. أفاقه من شروده صحفي متحمس للفن، بسؤال مفاجئ:

- لماذا سميتها خلود؟

- من تقصد؟

- لا أقصد شخصا. أقصد لوحتك الرائعة " خلود " .

- خلود..

وابتسم قبل أن يجيب:

- قد يكون الخلود رغبة مستعرة في نفس الفنان، رغبته في أن يخلد لحظة جمالية ما.. لحظة عاشها الفنان فتن خلالها بجمال أخاذ، فأحب أن يكون هذا جمالا خالدا.

- ربما يكون تجسيدا لمعنى " الجمال الخالد " .. إذا صحت التسمية.

- ربما..

حين هم رفيق بالانصراف، حدد موعد لقاء!

ولم ينس أن يكاشفه برغبته في زيارة ندى، قال:

- أود أن أزور أباها.

- تعش أنت.. قد توفاه الله منذ عام.

أطرق أسفا، واستطرد رفيق:

- تقيم مع أمها العجوز. هل ستطلب يدها؟

- ولم لا؟

- مستعد أنت للزواج؟.. متهيئ له؟

كما تعرف، لست متحمسا للزواج. لكن. لماذا لا أفكر في الاقتران بملهمتي التي شغلت بها، وفتنت بصورتها؟

وكان لقاء..

أحب فؤاد أن يجدد بهذا اللقاء صورة الماضي الجميل.

ضم المجلس ندى وأمها، ورفيق وفؤاد. تبادلوا حديث الذكريات عن أحوال كل منهم منذ خمس سنوات. كانت ندى أكثر إنصاتا وصمتا. وقال رفيق لندى:

- فؤاد فنان مرهف الحس. ألا تعلمين أنه رسم لك صورة رائعة؟

- وهل رآني جيدا حتى يرسمني؟.. لا أذكر أننا التقينا.

قال فؤاد:

- من نافذة غرفتي، سمحت لنفسي أن أتطلع إليك، فانطبعت في وجداني صورة فذة اختلط فيها جمالك بما أحس به.

- هل تأذن لي برؤيتها؟

- طبعا.. طبعا..

وتحدد موعد ثان للقاء.

ولما انصرفا، سأل رفيق:

- لماذا لم تطلب يدها؟

- ...

- أم أنك ستعيد النظر في اللقاء الثاني؟

رمقه فؤاد بنظراته وصمته..

وفي اللقاء الثاني، لم يشأ رفيق أن يأتي معه. زارها وحده، متأبطا لوحته.

كانت ندى على قدر من الثراء أكثر من ذي قبل، بما لديها من مال مدخر، استثمرته في مشروع تجاري صغير. ولما عرفت أن فؤاد أقام معرضا، باع فيه عددا من لوحاته، قالت وكأنها فطنت إلى ما يرمي إليه:

- حلوة، وجذابة.. بكم أشتريها؟

- إنها لا تشترى..

واستمرآ صمتا طويلا. قامت أمها تعد الشاي. استطرد فؤاد، وهو يرمقها بحنين الماضي:

- ولكني أهديها.. إلى صاحبة الوجه القمري الحالم، الذي فتنني، وألهمني هذه الرتوش.

- شكرا.. لكنك تعبت في رسمها.

- أكون سعيدا لو قبلت الهدية.

- شكرا.. على الهدية الجميلة..

ثم قالت بعد لحظة صمت:

- ولكن.. لماذا سميتها " خلود " ؟

احتار فيما يخالجه من أحاسيس. إنه يجلس قبالة ملهمته عن قرب. ولكن ثمة أميال تعد بالآلاف تفصل بينه وبين الوجه الذي استهام به منذ سنوات.

كررت السؤال..

ارتجل بضع كلمات..

- فيما يبدو أن غرور الفنان هو الذي أملى الاسم..

- ورنا إلى وجهها، ثم كسر حدة الصمت مرتجلا كلمات أخرى:

- كان هذا منذ خمس سنوات.

- أعرف أن لا شيء خالد في الحياة.

- حقيقة دنيوية معروفة للجميع.

أتت أمها بأقداح الشاي. وأنصت كلاهما لحديث الأم عن ذكريات زمان، وعن مقارنة لا ترحم بين أسعار السلع منذ ثلاثين سنة والوقت الراهن.

ثم استأذن فؤاد منصرفا.

يلتقي به رفيق بعد أيام، يسأله:

- هل طلبت يدها؟
- ...
- هل قوبل طلبك بالرفض؟
- لم أطلب يدها.

- هذا ما توقعته.. لهذا لم أشأ الذهاب معك. صدق ما ظننته من أنك وجدت صورة مغايرة لصورة ملهمتك.

- كأنهما صورتان مختلفتان جد الاختلاف..!

استطرد بعد صمت قليل:

- هل تستطيع السنوات الخمس أن تغير أحاسيس الإنسان؟ لا أكتمك القول يا رفيق.. لم أجد في ندى هذا الشيء المثير الذي كان يلهمني..!

- ربما زواجها هو الذي غيرها؟

- نعم هو الزواج.

لا تتسرع في الحكم.. ربما أنت الذي تغيرت؟

نعم هو أنا..

ولا تتسرع في هذا أيضا.. ربما السنوات الخمس قد أحدثت تغييرا وتبديلا؟

- نعم هي السنوات الخمس..

- لا تتسرع أيها الفنان المغرور. ألا ترى أنك تسرعت في تسمية لوحتك الجميلة " خلود " .. بعدما لمسنا ما لمسنا؟

- لم أتسرع. ما زلت مصرا على بقاء الاسم كما هو..

جال ببصره في السماء الواسعة العريضة، باحثا عن قمر الحب، الذي أطل عليه منذ سنوات خمس..

وكانت شمس الظهيرة قد ملأت الكون بنورها ونارها..

مجلة " القصة " القاهرة – يناير ١٩٨١

علاقة ما

هي في أول الشباب، وأنا في آخر عهدي به. نسجت لقاءاتنا علاقة ما، سميتها في رسائلي لها حبا نقيا.

تبادلنا ذكريات الماضي، حين بدأت معرفة أحدنا بالآخر. عفونا عما سلف. وتعاهدنا على بدء حياة جديدة، نحلق في سمائها كعصفورين. عشت شبه حالم بالعلاقة الجديدة التي نسجت خيوطها الحريرية بحرص ورغبة وشوق.

ثم انتشلني المنطق من حلمي الجميل. عدت أراجع عواطفي التي أسرفت فيها بلا حساب. قلت لنفسي إن العلاقة التي يدعمها العقل ستكون أبقى وأمتن. بقليل من العاطفة، وبكل اليقظة والاتزان تسلم علاقتنا وتصح.

واريت أحاسيسي المرهفة. وحرصت على أن أبدو جادا ورزينا. لكنها عاتبتني. حين حاولت تبرير موقفي، تورطت في التناقض. هل كنت أقول ما لا أبطن؟.. أم كان حبي خداعا؟ ورسائلي الغرامية، هل كنت أكتب عن كاذبات

الأماني؟.. وبكت.. بكت العصفورة الحلوة بين يدي. كست الدموع وجهها الملائكي، ووجمت. شعرت بعجزي عن تغيير الموقف.

هي تستقبل أول الربيع، وأنا أستقبل أول الخريف.. فهل يلتقي ربيع الحياة بخريف العمر؟

- كلمات الحب التي حلقت في سمائها، كانت من صنعك.

- لم أصنعها، كنت ضعيفا أمام جمالك.

- هكذا دائما، تمنطق كل شيء حسب أهوائك.

وأخذت تبكي، ومن خلال دموعها تمتمت:

- شعرت معك بالسعادة، أحسست أني أعيش من أجل شيء ما.. وتلونت حياتي بلون جميل بهيج، وبات لها طعم حلو ومذاق سائغ. أحسست معك بأني أسعد أنثى في الوجود، وأجمل امرأة على وجه الأرض.

- جاش القلب بعواطفه في غيبة العقل.

- أفقت من حلمي الجميل، قذفت بي من حالق. ارتطمت بأرض الواقع.

- الإسراف في الخيال أدى إلى ذلك.

- ربما الإسراف في الحذر.

- تريدين أن تعيشي في عالم الخيال وأنا أردك إلى دنيانا.

- تقصد.. عشنا في وهم؟..

- لا.. لكني أخشى التردي في الزيف.

- وهل عالمنا هو الحقيقة؟

- هو الواقع.

تعلقت عيناها بالأرض وظلت صامتة، جامدة الملامح.. ثم رفعت عينيها في وجهي. قالت في ألم:

- قلبي يتمزق.

- وأنا قلق.. عقلي مضطرب.

واتفقنا على أن نفترق في مثل هذه الظروف، وعانيت في ذلك ألما ممضا..

اعترتني رغبة جارفة في أن أكتب رسالة حب، ضمنتها ما لم أقله في لقائنا الأخير. ثم تلقيت رسالتها النابضة بالعواطف الفياضة والأحاسيس المرهفة. عبرت عن حبها

ووفائها لهذا الحب. قالت إنها ما زالت تتعبد في محرابه، وفية، مخلصة.. مؤمنة بأني سأعود لها ذات يوم، مثل إيمانها بوجود الله.

وهرعت إليها.. تسبقني أشواقي.. احتضنتها.. قالت وشفتاي تجوسان شعرها الفاحم:

- إن عودتك، هي عودة الروح إلى جسدي الضعيف.

عجزت كلماتي عن التعبير عما في قلبي، الذي أخذ يدق تلك الدقات السريعة حين التقينا أول مرة.

قالت مازحة:

- أما زلت تنصح بالاتزان والحذر؟

- نعم، في كل شيء.. ما عدا الحب، فليس في الحب إلا الحب.

وكانت قبلة حارة أذابت ما تبقى في الأعماق من حروف شائهة عرجاء.

مجلة " الإخاء " – طهران

١٠ يوليو ١٩٧٦

الطابور

في الصباح الباكر، توجهت إلى مكتب التموين، لأقف مع الواقفين الذين أعطي لهم الحق في حصص التموين دون سواهم من فئات أكثر قدرة على الكسب، وأيسر حالا.

أنا موظف. مرتبي لا بأس به، وإن كنت عاجزا عن فتح رصيد في بنك. يعني مستورة والحمد لله.

أمس، رجوت البقال أن يتولى تغيير بطاقتي، فأرجأني عدة أيام. فهمت أنه يريد أجرا لقاء ذلك. عاندت نفسي وأصررت على إنجاز المهمة بنفسي.

أشد ما يضايقني أن أقف في الطابور. ولكن، ما الحيلة؟ ليس من طبعي أن أدفع رشوة أو أكون مرتشيا. يعني: نظيف والحمد لله. فلماذا أكبو في هذه المرة، وأسلك طريقا لست أرضاه؟

طابور طويل يتلوى كالثعبان، وطابور قصير نوعا ما للسيدات. يحشد الطابور خليطا من أولاد البلد المتجلببين بجلابيب، والعجائز، والشباب المتزوج حديثا..

تناولت استمارة وملأت بياناتها. يد امرأة بدنية تمتد نحوي باستمارة، فملأتها لها. ويد أخرى لعجوز، ويد ثالثة.. كنت في عجلة من أمري كي آخذ دوري في الطابور. لكن لا بأس، التريث خمس دقائق أو عشرا، من أجل هؤلاء السيدات الأميات. تنقدني إحداهن عشرة قروش.. نظرت إليها شزرا..

- ما هذا؟
- أتريد أكثر من عشرة قروش؟

ثرت في وجهها. أفهمت الجميع أنني لست كاتب " عرض حال " . وحينما تلفت حولي، لمحت صبيا في الخامسة عشرة، يملأ الاستمارات لقاء أجر. انسللت هاربا من المكان، وأنا أخشى أن يراني أحد من معارفي، فيدركوا خطأ ما ليس بي.

استطال الطابور الثعباني أكثر فأكثر، وكثرت فيها الانحناءات.. فإذا ما اعترض الطابور حائط المبنى، انكسر، وانتظم بجوار الحائط.. وإذا ما اعترضه كشك سجائر، استدار حوله محتضنا الكشك.

وقفت في آخر الطابور، وما هي إلا لحظات، حتى وجدت خلفي قرابة عشرة أفراد، فأحسست بالزهو لتقدمي عليهم.

بجانبي بائعة شاي، تتجلبب بجلباب أسود. سيدة في الثلاثينيات. تشكل السمرة لمسة رائعة من لمسات الجمال، تضاف إلى قسمات الوجه المريحة. عيناها نجلاوان لماحتان. تروح وتغدو بأكواب الشاي لباعة الخضر والفاكهة المجاورين لمكتب التموين.

ركن الشاي، عبارة عن منضدة خشبية وضع عليها براد شاي كبير على موقد بوتاجاز، ووعاء معدني نظيف، مملوء بالماء. اصطفت الأكواب النظيفة في صفين منتظمين، وكرسي خشبي قديم، ينبئ حاله عن ثلاثة أجيال توارثته، ولم يزل صالحا للاستعمال، وإن كان يشكو تشققات في قاعدته الخشبية. كما أن إحدى أرجله قد أعيد تثبيتها بغراء ومسامير.

يجلس على الكرسي طفل في الثالثة. يبدو نظيفا. أمه بائعة الشاي، تهتم بنظافته مثلما تهتم بركن الشاي، مصدر رزقها. وجه الطفل نظيف. تحدق عيناه في الطابور. يرتدي

قميصا نصف كم، وسروالا قصيرا يكشف ساقيه. سمرة الطفل من سمرة أمه.

بجوار الكرسي، دكة خشبية تشكو هي الأخرى آثار الزمن، لكنها بأي صورة صالحة للاستعمال.

الفرصة مواتية لشرب الشاي. قتل الوقت مهم. راقبت البائعة وهي تضع قوالب السكر في الكوب بيد مدربة، ثم تمسك ببراد الشاي وتصب منه خلال مصفاة. تعلقت عيناي بيدها وهي تحرك الملعقة حركة دائرية متأنية. الجو شديد الحرارة، لكني أشرب الشاي الساخن في كل الأوقات.

قلت للرجل الذي يتقدمني:

- تفضل..

شكرني بامتنان، ووجدها فرصة ليتجاذب معي أطراف الحديث. نبهني إلى الذين يندسون في مقدمة الطابور، مخالفين النظام.

قلت له:

- هذا خطأ الشخص الذي يسمح بهذا..
- ربما يكون المندس قريبا أو صديقا له.

- يعني مجاملة.

قال متضايقا:

- إنها المجاملة التي تفقدنا شيئا من القيم.

- كلماته نافذة. تأملت وجهه الصارم، شعره المخلوط فيه البياض بالسواد. وعينيه الحادتين. أحسست ببركان يختفي وراء ملامحه، وما نظراته الحادة، وكلماته النافذة إلا شررا من حمم البركان الدفين.

امتد به الحديث حول انتظام وأصول المعاملة. كنت المتلقي الوحيد لكلماته. لم يصدق ظني في أنه سينهي حديثه. وكرر لزومياته، حول تأنيب المخالفين، وحث الواقفين على الالتزام بالطابور.

التفت أمامه، وهو قلق لما يحدث، وانصرفت عنه بشرب الشاي، وملاحظة الرجل النحيف الواقف خلفي. يبدو عليه التوتر. وعصبية المزاج، وتعجل الأمور. قلت له وقد تحرك الطابور عدة سنتيمترات:

- هانت..

قال على التو:

- والعمر يهون يا أستاذ..

بدأ الرجل الواقف أمامي يتودد إلي. حدثني عن ابنه الذي يتأهب للزواج. أخبرني أن موظف التموين صديق حميم لابنه أردف همسا:

- لكن لم أشأ أن أقصده.

- على الأقل، يرحمك من هذه الوقفة.

قال في غضب:

- لم يفاتحني في هذا.

تنهد كأنه يزيح هما:

- هو صديق حميم لابني..

قطعت امرأة حديثنا المتقطع. المرأة تمثال حي ناطق بالفاقة. ثوبها حائل اللون، مترب مرتق. حول رقبتها اكتناز، وتجاعيد تنبئ عن مرارة السنين التي عاشتها. تحمل فوق رأسها سلة فيها خضار، كاد يفسد عند بائعيه. لم أكن أنصت جيدا لما تقول، قدر تأملي لعينيها المنتفختين وتتبعي لحرف الراء الذي تقلبه ياء. المرأة البائسة لها مشكلة مع مكتب التموين، تعرضها علينا بأسلوب غير مفهوم تماما، إلا

بالاجتهاد وإخلاص النية في فهم المشكلة. يبدو أن عائل الأسرة قد توفي، وأنها تريد قيد أمها العجوز. قال الرجل الواقف خلفي:

- اذهبي لرئيس المكتب، واعرضي عليه مشكلتك.

ثم أشار إلى المكان الذي تذهب إليه.

يبدو أنه لم يستمع جيدا لكلامها. شاء أن يريح الواقفين من عناء التفكير. متعجل لكل شيء هكذا يبدو، فيما عدا وقفته هذه في آخر الطابور المتثني كالثعبان.

رثيت لحال المرأة. لكن ما الحيلة؟ قد انطبعت صورتها في ذهني، تمثالا حيا للفاقة، لم يبدعه فنان.. وزاد التمثال تجسيدا وتعبيرا، تلك العين الزجاجية البارزة. كانت المرأة قد ذهبت بما تحمل من خضار فاسد ومشاكل، إلى حيث أشار الرجل.

عاد الرجل الواقف أمامي يحدثني:

- لست أحب أن يجاملني أحد. هذا أسلوبي في التعامل.

- هذا أفضل.

امتد الصمت بيننا عدة دقائق. تأملت خلالها بائعة الشاي وهي تؤدي عملها، وطفلها، فيترك كرسيه ويخترق الطابور من عدة أماكن، ثم يحاول الجلوس على الدكة الخشبية فيفشل، فيعود إلى الكرسي، أو يمسك بذيل ثوبها ويحتضن ساقيها بذراعيه.

صدمني الرجل الواقف خلفي، وهو يزفر زفرة ضيق مشبعة بتنهيدة طويلة:

- أف.. يا رب ارحمنا..

قلت ألاطفه:

- تجاوزنا الثلث الأخير من الطابور.
- أف.. طابور لا يعرف له رأس من ذيل.

شارك الرجل الواقف أمامي بقوله:

- المندسون أس البلاء.. لو تطهر الطابور منهم، لارتاح الجميع.

لم يعقب الرجل الواقف خلفي بشيء. أنهى تأففه بإشعال سيجارة، وتدخينها بعصبية وتعجله إنهاءها.

قلت للرجل الواقف أمامي:

- المندسون يعكرون صفو الطابور. دائما نلقى في كل نظام من يعكر صفوه. مشكلة المشاكل.

وحدثني عن حرصه على اتباع النظام، ورفضه للوساطة والطرق الملتوية. وأكد لي أن أموره تسير سيرها الطبيعي..

عاد الصمت يخيم على الطابور. ولا يسمع إلا خليط أصوات قريبة منا وما تفرضه طبيعة المكان بما فيه من صياح وأبواق سيارات ومكبرات صوت قريبة وبعيدة.

نظرت إلى الطابور من أوله إلى آخره ألفيت خلفي عشرات من الرجال وأمامي أضعاف الأعداد التي خلفي. إذن فقد اقتربت قليلا من منتصف الطابور. هانت. الصبر مفتاح الفرج. قد اقتطعت اليوم من رصيد إجازاتي. ها أنا أقترب قليلا. خطوات لا تتعدى المترين إلى الأمام. لا بأس. حتما سأصل.. برغم هؤلاء المندسين في أماكن أمامية.. لا ضير.. مثلما لا تضار السماء إذا عكرت صفاءها وزرقتها سحابة عابرة.

أتى رجل وأعلن عن فتح شباك آخر لتلقي الطلبات في الجزء الخلفي من المبنى. تردد الواقفون في الاستجابة للنداء.

حرصت على البقاء في مكاني محتفظا بدوري. ربما تكون خدعة لينقلب الطابور إلى فوضى. انصرف البعض إلى الشباك الجديد بخطى مترددة. تشجع آخرون حتى كثر عدد المنصرفين. ولما أحس الكل أنهم يمثلون كثرة، بدءوا يركضون متزاحمين نحو الشباك الآخر. تركت مكاني، وتركت ساقي تسابقان الريح عساي ألحق مكانا متقدما في الطابور الثاني. ولكني. إذ وصلت.. ألفيت نفسي في آخر الطابور!.. والواقفين في أوله، هم الذي كانوا في آخر الطابور الأول!

ندبت حظي، إذ أنظر خلفي فلا أجد أحدا يقف ورائي، فتركت الطابور الجديد واتجهت نحو بائعة الشاي. جلست على الدكة الخشبية، وطلبت شايا. عيناي تحدقان في الطابورين اللذين يتثنيان كثعبانين طويلين، وإن كانا متحفزين للوثوب إلى شيء ما.

عدت أرنو إلى بائعة الشاي. كيف تثابر على العيش بقروش الشاي الزهيدة؟.. كيف تربي طفلها، وتعتني بنظافته؟.. أهي المثابرة والإصرار؟.. أم ماذا؟..

وحين عدت إلى بيتي.. حكيت لزوجتي ما حدث. بالغت في الوصف. قالت:

- إذن، عدْ إلى البقال، ينهي لك الإجراءات.

صمت..

قالت:

- ادفع له ما يريد.

قاومت شيئا بداخلي قلت بإصرار:

- أرجو أن توقظيني مبكرا.. مبكرا جدا.. سـأحرص على الوقوف في أول الطابور.

ابتسمتُ ساخرا، وأكملت:

- لن أعبأ إذا انقسم الطابور الثعباني إلى اثنين أو ثلاثة. سأظل واقفا في مكاني.

وتنهدت في شبه ارتياح.

سأنهي كل الإجراءات غداء.

في الصباح، سيكون كل شيء على ما يرام!

مجلة " الثقافة "

القاهرة – العدد ٨٠ - يوليو ١٩٨١

إبهام

عبد المقصود مقاول أنفار. يحسده الناس على ثرائه.. يملك عمارتين تطاولان عنان السماء، وخمس سيارات أجرة، غير سيارته الخاصة.. يعيش حياة الترف والنعيم، بعد أن كثرت أعماله وتعددت، وباتت مهمته توريد الأنفار لأعمال الحفر والبناء. وبحكم خبرته وحنكته، أصبحت المهمة سهلة وميسورة. علمته الخمسون شتاء التي عاشها، كيف يتجه إلى العملية الرابحة. اتسعت دوائر أعماله بعد أن تعامل مع هيئات الحكومة وشركات القطاع العام. يقبض حساباته بشيكات. كثر تعامله مع البنوك، وفتح حسابات جارية تتعدى العشرة آلاف بكثير.

تظل مشكلة عبد المقصود.. أنه يجهل القراءة والكتابة. حاول أن يمرن يده على كتابة اسمه، لكنه استشعر حرجا من ابنته هدى. كبرياؤه يمنعه من المحاولة، فاكتفى بعمل خاتم باسمه لصرف الشيكات. وأصبح الخاتم ملازما له كبطاقته الشخصية، يأخذه معه أينما ذهب.

لم يسلم من ضيق الصدر، فموظف البنك دائما يصر على أخذ بصمة الإبهام، بجانب الخاتم. وكان يظن أن الخاتم يعفيه من البصمة، التي أوقعته في الحرج. كلما فكر في أن يقصد ابنته لتعلمه القراءة والكتابة، يتحرج في الطلب. فظل متخبطا بين شقي الرحى. هذه المضايقات لم يطلع عليها الآخرين. حتى زوجته.. هي في طيات نفسه لا يكاشف بها أحدا. الكل يحسد عبد المقصود على أمواله التي يبعثرها ذات اليمين وذات الشمال، ولا أحد يتشوف الظل القاتم الذي لازمه، فعكر صفاء حياته.

أحيانا، يجلس بجوار هدى وهي تستذكر دروسها، فيتيه بها فخرا، ويحس أن ما ينقصه قد اكتمل في شخصها.. فترتاح نفسه، ويروق مزاجه.

ثم تطوف في مخيلته صورة فكري، موظف البنك وهو يمسك بإبهامه، ويضغط به على الختامة، ثم وهو ينقله بحركة آلية إلى ظهر الشيك، ضاغطا بقوة أكبر، واضعا البصمة الواضحة، أمام طابور من الناس، يندر فيهم من على شاكلته، فيحس كأنه من عالم غير عالمهم!.. أو أنه غريب عن بلده.

فكري، شاب مهذب، وفي مقتبل العمر. لبق الحديث، سريع البديهة، حاد الذكاء. يحفظ اسم عبد المقصود عن ظهر قلب، لكثرة تردده عليه.

يلملم عبد المقصود شوارد أفكاره.. وكلما تذكر وقفته الذليلة أمام شباك الصرف، والخاتم، والإبهام، وفكري، حتى تستنفره الصورة.. وما أكثر فرحته حين يخيرونه بين تحرير شيك أو الصرف النقدي، فيفضل صرف مستحقاته نقدا.. لكنها حالات نادرة..

جلس مع زوجته يتسامران.. فتقول هل بنبرة هادئة:

- كم أود أن أفرح بهدى.
- الأوان لم يحن بعد.
- هدى لم تعد صغيرة.
- ننتظر حتى تنهي دراستها.
- يمكنها أن تخطب، لحين تخرجها.

شرد عبد المقصود.. تردف الزوجة:

- جارتنا أم حمدي، قالت لي إنها تريد أن تفرح بابنها حمدي.

- وبعد ذلك.

- لم تقل شيئا أكثر من ذلك.

- يعني كلام فض مجالس.

- جارتنا حذرة وحريصة.. تخشى أن تطلب هدى لحمدي.. حتى لا تصدم بالرفض.

- يعني..

لم يكمل جملته. قفزت إلى خاطره صورة فكري، موظف البنك. إنه مناسب لهدى. ولكن.. طرأت على باله فكرة.. أن يصحب معه هدى، للتوقيع على الشيك بدلا منه، وتحله من الحرج الذي يتردى فيه.. وتكون فرصة ليتعرف فكري عليها، فرصة متاحة ومعقولة.

سعدت هدى لأن أباها سيصحبها إلى البنك، لم يتعود أن يصحبها في أي مشوار من مشاويره، ونادرا ما تخرج معه. لهذا سعدت، وارتدت أجمل ما عندها، وأحست بالزهو.

أمام فكري.. عبر الحاجز الزجاجي.. ابتسم عبد المقصود قائلا:

- ابنتي هدى. الله يبارك فيها. ستوقع بدلا مني.

رمقها فكري بلمحة عابرة وقال:

- ربنا يخليها لك يا معلم.. البطاقة يا آنسة..

مدت يدها.. كانت البطاقة غير واضحة ومقطوعة..

- آسف يا معلم.. البطاقة غير مقروءة..

وجم عبد المقصود. لم يفهم ما يقصده بالضبط. فصمت صمتا محيرا وهدى واقفة مزهوة بنفسها، منبهرة بمعالم البنك الذي دخلته لأول مرة قال فكري.

- أعطني ختمك يا معلم.

مد عبد المقصود يده المرتعشة إلى جيب سترته، وأخرج الختم، ثم أسلم إبهامه، ليضع البصمة – ككل مرة – على ظهر الشيك.. الموقف الآن جد مختلف.. فهدى.. مفخرة حياته، وزهو أيامه.. تلحظ لأول مرة، الحرج الذي يتردى فيه أبوها. ود لو يهرب من المكان، أو يتنازل عن الشيك، أو يؤجل صرفه. لكنه.. أسلم إبهامه ليد فكري.. ثم.. انهمك في عد الأوراق المالية.

لاحظ عبد المقصود أن موظفات البنك يتحدثن كثيرا مع فكري.. فتيات جميلات وأنيقات، أحلى من هدى، وأجمل. المقارنة قاسية، كأنه يكتشف ابنته لأول مرة. بدت هدى

ممصوصة، يهرب الدم من عروقها، وقد أهملت زينتها وأناقتها. كيف يحدث هذا؟.. إن أمواله كثيرة.. كيف لم يتنبه؟ ألم يلاحظ ابنته؟

ومثلما افتضح أمره أمام ابنته، أيضا افتضحت ابنته أمامه. تعرف كل منهما على ظل قاتم في حياة الآخر.

مضى بابنته إلى البيت، كاسف البال، وانصدت نفسه عن الأكل، واستسلم للرقاد، وهو يفكر جديا في أن يصادق هدى.. ويهتم بها. أعاد التفكير فيما قالته زوجته.. وحين قطعت وحدته لتسأله فيم يفكر؟.. أجاب:

- جميل جدا هذا الثراء.. لكن الأجمل منه أن تتغير نظرتنا للحياة.

استغرقها التفكير في مدلول الكلمات. بينما أخذ عبد المقصود يضغط إبهامه الأيمن في بطن كفه اليسرى، مرات ومرات.. كأنه يمرن نفسه على المزيد من البصمات.. الخجلى!

المجلة العربية – الرياض

ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (ديسمبر ١٩٨٣)

أبي

تغير كل شيء بعد وفاة أبي. ثلاثة أشهر مضت على وفاته. كان حزني خلالها حزنا صامتا. أقبع وحدي في غرفتي، أجتر ألم الحرمان، وحولي كل شيء يتغير.. فأختي سحر التي تكبرني بثلاثة أعوام، بدأت تستكشف في نفسها أشياء جديدة. خرجت عن صمتها المعهود، وعزلتها الكئيبة، وانجذبت إلى الحياة. نجحت في الإدلاء بآرائها في كل ما يجد على الأسرة من أحداث. فاجأتني ذات يوم بقولها:

- لماذا تصر على أن تبدو حزينا؟

كنت أهم بتطويق عنقي برباط أسود، فتوقفت يداي، ورحت أفكر.. لكني عجزت عن الرد، فآثرت السكوت.

منذ ذلك اليوم، وجدتها تنتقي بنفسها رباط العنق الذي يتلاءم مع هندامي.. كما تبدي رأيها في تصرفاتي.

أما الصغيرة سناء، فقد غيرت معاملتها معي. وثقت بآرائي، واعتبرتني مسئولا عنها في الحدود التي تراها مناسبة.. حتى خيل إلي أنها وضعتني مكان أبيها الذي عانت

من فقده الكثير من الآلام. كان أبوها محل ثقتها، والمرجع الأول والأخير في كل ما يعن لها من خوافي الأمور. وحين مات أبي، نظرت إلي نظرة جديدة ملؤها الاهتمام. إنها تلح علي في هذه الأيام كي أقرأ القصص، وأشاركها تلك الهواية التي نمت منذ فترة قصيرة. ولم تقتصر على تلك الدعوة الملحة، وإنما أعطتني قصتين لقراءتهما، ووصفتهما بأنهما أروع ما قرأت!

وأمي الطيبة، تقسو علي في أحكامها.. فلا أتأخر كثيرا خارج البيت، ولا أسهر، وعلي أن أكون متزنا معتدلا في كل تصرفاتي.

مضت ثلاثة أشهر على وفاة أبي، ورغم هذا، فما زلت أعي كلمات الرثاء التي قالها أحد أقاربنا:

- البقية في حياتك.. كان المرحوم رجلا طيبا.. الله يرحمه.

واسترسل في سرد عزائه. كلمات تكررت كثيرا حتى أرهقت سمعي. رجل طيب!.. يا إلهي!.. كم سخرت من هذه الكلمة!.. فهكذا نشيع موتانا. نقول إنهم طيبون وننسى أننا

دائما نبخسهم قيمتهم الحقيقية.. فكلمة الطيبة ترادف كلمة التأثر، وهناك علاقة وثيقة بين الكلمتين.

الحياة تتغير.. كل شيء في الحياة يتغير ويتجدد. حتى نداء البائع المتجول. نداء تتجدد نغمته، لكني لا أشعر في تكراره بالملل أو السأم. فكلما تناهى إلى أذني نداؤه، أستشف معنى جديدا وأتذوقه كنغمة خاصة. إن صوته يشعرني بأن الحياة مستمرة، ولا يعرف لها انتهاء.

في هذه الأيام، اهتم بسحر مثلما تهتم هي بجمالها وزينتها.. إنها جديرة باهتمامي. لم تعد تلك الفتاة الغريرة المضجرة.. إنها الآن تصر على التزين، والأناقة.. حتى أصبحت فتاة جميلة جذابة.. فأشعرتني بإمكان تغيير صورة الإنسان.

* * *

أنا المسئول الوحيد عن البيت.

هكذا تغير الموقف. كنت واحدا من الأسرة، أتصرف كأي فرد فيها. كنت حر التصرف. لكني الآن لست كالآخرين. أنا فرد مهم بالنسبة للآخرين. هكذا شاءت

الظروف أن تضعني. بدأت العيون تتجه ناحيتي كآخر مرفأ يلجئون إليه. كل الناس ينظرون إلي نظرة خاصة. أحسست في فترة وجيزة، بقيود رهيبة تكبل تصرفاتي القديمة، وترغمني على تغيير طبيعتي ولا أبدو إلا كما يحب الآخرون أن يروني.

أنا المسئول عن أمي وشقيقتي الاثنتين. أنا صاحب الرأي. هكذا أكدت لي أمي بكلماتها..

- أبوك مات. البركة فيك يا ابني. مات وترك لنا رجلا.

كانت الكلمات ثقيلة. لكني قدرت قيمتها الحقيقية.

* * *

كنت أطالع في غرفتي حين دخلت سناء في ثوب أنيق، وابتسمت قائلة:

- أنا خارجة..
- إلى أين؟
- سأذهب مع صديقتي إلى السينما.

قلت في حزم:

- لا تتأخري عن الساعة التاسعة والنصف.
- قد نتأخر قليلا بسبب المواصلات.. حسبما تشاء الظروف.. لكني تشبثت بقولي..
- قلت لا تتأخري عن التاسعة والنصف.

كان صوتي حادا بعض الشيء. لقد أفزعني ما قلت من كلمات صارمة، ولا شك أن سناء فزعت هي الأخرى، فقد أسهمت صامتة.. ثم غادرت غرفتي دون أن تنبس بكلمة واحدة.

ظللت أقسو على نفسي وأحاسبها على ما بدر منها من صرامة وعنف. كان الأجدر بي أن أكون لينا بعض الشيء.

دلفت سحر إلى غرفتي، ثم صاحت:

- أنت قاس!

- تألمت لعبارتها، لكني تصنعت اللامبالاة، حتى أخفي عجزي عن الرد.. فأكملت صيحتها الحادة:

- رحم الله أبانا.. لم يكن ديكتاتورا مثلك..

أفزعتني كلماتها، لكني لم أستطع أن أتكلم. صمت ثانية لا أدري ماذا أفعل؟.. ثم قلت في ضعف ظاهر:

- ماذا فعلت؟

صاحت في انفعال:

- ألا تدري؟ إنها تبكي في غرفتها. تذكرت أباها الذي افتقدته، وأقسمت على ألا تخرج من البيت الليلة.

خرجت سحر منفعلة، وظللت وحدي.. أتألم في صمت..

بت ليلتي مسهدا، أعاتب نفسي وأؤنبها لتصرفي الأحمق مع سناء.

وفي الصباح، عرفت قدماي الطريق إلى مقبرة أبي، كأني أستغفره لما بدر مني في المساء. ذهبت مستسلما لدافع خفي، ووضعت على المقبرة باقة ورد، ورن في أعماقي صوت هامس:

" أبي.. ناس كثيرون يترحمون على موتاهم.. لكنهم بهذا يبخسون حق الموتى عليهم. إن الموتى لا يذهبون سدى. إنهم يهبون أنفسهم مخلصين للأحياء. إن قيمتك الحقيقية تعيش في حياتنا جميعا، فردا فردا.. تعيش في حياتي، وفي حياة أمي، وفي حياة شقيقتي العزيزتين " .

عدت أدراجي، والصمت يكبلني، فوصلت إلى البيت فاتر الهمة.. في قلق مستبد. رأيت الصمت يخيم على البيت، فسناء التي انتحبت في المساء، واصلت حزنها في الصباح، وغلفها الشجن..

قالت لها سحر:

- لا تحزني يا سناء.. لم يذهب أبونا سدى. إنه يعيش فينا جميعا. لا تبكي فالدموع لا تهب الراحلين قيمتهم، وإنما قيمة موتانا هي في قدرتنا على مواصلة الحياة من بعدهم.

وأطرقت الأم لحظة، ثم قالت:

- صورته لن تفارقنا أبدا.

- هكذا يا أمي تكون قيمة الراحلين عن عالمنا. هذه هي حكمة الموت.

زعقت والألم يمزق قلبي:

- يتراءى لي البيت موحشا، كئيبا.. كأن البيت خال!..

وتغلب ضعفي على إرادتي، فهرعت إلى غرفتي أذرف دموعا غزيرة. ومن خلال دموعي، نظرت إلى صورة أبي التي تزين الحائط بإطارها المذهب، كأني أستعطفه أن يغفر

لي ضعفي. طالعتني ابتسامته الحانية، كأنه يشد أزري، كأنه يقول عبارته المعهودة: " شد حيلك! " . حينذاك، خجلت من ضعفي فأمسكت عن البكاء.

وأحسست بقوى خفية توقظ إرادتي المشلولة، كأنها إرادة أبي!

مجلة " الثقافة الأسبوعية "

القاهرة – ٢٠ فبراير ١٩٧٥

ثلاثة مقاطع كروية

(المقطع الأول)

ألفيت نفسي منفردا بالكرة. نظرت حولي أرنو إلى اللاعبين. لا أجد واحدا يهتم بي. ربما هي خدعة. لكن لاعبي فريقي خلعوا الصدار الأخضر والسروال الأبيض، وارتدوا صدارا أحمر وسروالا أحمر، واندسوا وسط لاعبي الفريق الآخر. خشيت أن يكون صداري هو الآخر أحمر. تأكد لي أنه لا يزال يزدهي بالاخضرار، وما زال سروالي أبيض ناصع البياض. ربما هناك تعليمات جديدة. جالت عيناي في وجوه اللاعبين أبحث عن قائد الفريق. ولما صافحته، تبين لي أنه قائد الفريق الآخر. شردت عيناي في البعيد حيث ينزوي المدرب في ركن قصي. ولما وجدت أنني اللاعب الوحيد الذي يقف الجميع ضده. ركضتُ بالكرة كسيارة مجنونة، أسددها كيفما اتفق، والحكم، حاكم المباراة، يخرق صفير صفارته طبلة أذني، وهاتف داخلي يشجعني

كي أواصل التحدي، ربما يريد أن يجبرني على تغيير ملابسي وأتحول إلى شيطان أحمر. عاندت، وجريت بالكرة في اتجاه المرمى. المرمى خال. تركه حارسه وانضم إلى لاعبي الفريقين. فرحتُ عندما سكت الصفير. دب الحماس في عروقي، وركلت الكرة بقوة، مسددا قذيفتي في اتجاه المرمى الخالي. لم تخطئ الكرة طريقها، لكن حاكم المباراة أطلق صفارته قبل أن تدخل المرمى بمتر واحد، وأقبل نحوي يعلن هزيمتي.

(المقطع الثاني)

ما أشهده في الملعب عجيب غريب. ارتدى لاعبو الفريقين زي أمناء الشرطة، واصطفوا جميعا صفين منتظمين، أمام مرمى الفريق الآخر، وبأيديهم بنادق آلية. تلتمع نصالها بانعكاس أشعة الشمس عليها. أما حراس الملعب، فقد ارتدوا زي اللاعبين، وتناثروا على الخط الأبيض الذي يحد الملعب. أخافني الحائط البشري الذي يسد المرمى كله، ولم أعد أرى الشبكة. رأيت بدلا منها وجوها صارمة وحرابا مسنونة. جريتُ لاهثا ونبضات قلبي تتسارع، تاركا الكرة في منتصف الملعب الخالي. حاولتُ

الخروج، فيصدني حارس متنكر في زي لاعب، كما لو أنه يصد كرة دافعا بها إلى الداخل. أرنو إلى الحكم، حاكم المباراة، كي ينقذني من الحصار زعقتُ بأعلى صوتي: " كما ترى، حصار من الداخل وحصار من الخارج " . لكن صوتي لا يصله، ولا يسمعه أحد. صوتي أشبه بطلقات رصاص زائفة من مسدس كاتم للصوت، والطلقات ما هي إلا كلمات يبعثر الهواء حروفها. أطلق الحكم صفارته، مشيرا بإصبعه حيث موضع الكرة. جريتُ إليها ولا منافس لي. أنا اللاعب الوحيد. أنا النجم الذي تشخص إليه أنظار المتفرجين. لا. هناك أعين شاخصة جاحظة. تخيفني تلك الأعين، تخيفني بالسلاح الآلي الممسكة به. محاصر أنا في الملعب الواسع. نظرتُ إلى المتفرجين، أستطلع رأيهم، فألفيتُ الجميع يشيرون إلى موضع الكرة وهم يهتفون بحناجر ملتهبة. لكن هتافها لا يصلني. إنما يصك أذني صفير الرياح. لا مفر إذن. لا بد من ضربة الجزاء. جريتُ إلى الكرة، أدحرجها إلى الحائط البشري المسلح. حرصتُ على أن أقذف الكرة أمام الحائط المنيع، الذي تفصلني عنه عشرة أمتار تقريبا. لكن الكرة قبل أن تصطدم بالحائط، أخذت

تتحرك حركات عشوائية من أسفل لأعلى، ثم تمزقت، خوفا ورعبا، وتناثرت أشلاؤها أمامي.

(المقطع الثالث)

اختلفت مع حاكم المباراة. سددت خمس رميات ناجحة أمام مرأى الجماهير الغفيرة. تأكدت الأهداف حين استقرت الكرة داخل الشبكة، وحين علت هتافات الحناجر، وحين ارتفعت الرايات، وحين أطلق الحكم صفارته، وحين أضاءت الشاشة الرقمية تضيف واحدا في كل مرة لرصيد فريقي. لكن حاكم المباراة، استبد برأيه، وأنكر أن للجماهير صوتا. وادعى أنه لم يستعمل الصفارة بعد، وأن عمال الصيانة كانوا يقومون بأعمال تجارب على الشاشة الرقمية فلعبوا بأرقامها. ولما رددته بأنني رأيتُ الكرة بإنسان عيني وهي تدخل الشبكة وتستقر بداخلها، ضحك هازئا مني، وأرجع ذلك إلى خداع الحواس. وقال ضمن ما قال: " نعم سددت الكرة، لكنها ما إن دخلت المرمى حتى ارتدت واستقرت خارج الشبكة. ولما قلت له إن كلامه قد يكون صحيحا في رمية واحدة، لكن هناك أربع رميات أخرى، استقرت فيها الكرة داخل المرمى. ابتسم في هدوء وهز رأسه زاعما أن الرميات الخمس كلها

خارج الشبكة. ونفس ما جرى للكرة في الرمية الأولى، حدث في الرمية الثانية، وفي الثالثة والرابعة والخامسة. كدت أجن. نظرتُ إلى الجمهور المصطف بأعداد غفيرة. تصايحت الأصوات غضبا وشططا، وأخرج حاكم المباراة بطاقة حمراء من جيبه. فخرجتُ من الملعب منكس الرأس، أجر أذيال الخيبة. إذا بلاعبي الفريق الآخر يدخلون الملعب واحدا بعد الآخر. ثم دخل لاعبو فريقي بنفس الطريقة. هرعت إليهم كي آخذ مكاني في الطابور، فانتهرني قائد الفريق، رغم صداقتنا، وأكد أنني مطرود من المباراة، وكل المباريات، مثل آدم المطرود من جنة الرحمن، رغم أنني لم أقطف فاكهة من الشجرة المحرمة. ولما حدثته عن الأهداف الخمسة، سخر مني وزعم أن المباراة لم تكن بدأت بعد.

مجلة " الهلال " – القاهرة –

أغسطس ١٩٩٥

الكرة تختفي في الأعالي

اثنان يلعبان. يتقاذفان الكرة. يتقافزان معها في الاتجاه الذي تميل إليه. يريان الكرة ولا يراها غيرهما. إذا اتجهت جهة اليمين، امتدت أذرعهما بأكف مبسوطة. يتسابقان في رميها. اختارا أرض فضاء مسورة ملعبا لا يزاحمهما فيه أحد.. تطل أنقاض منزل متهدم، تشي بقايا جدرانه وأسقفه المتهاوية، وأعمدته المشروخة إلى مَنْ عاشوا فيه..

أطلق أحدهما الكرة عاليا. رنا الثاني إلى الارتفاع الشاهق الذي وصلت إليه، وفي دورانها حول نفسها، كأنها تعجب من الرمية العشوائية.. نظر إلى صاحبه يعتب عليه. رنا هو الآخر إلى الارتفاع الشاهق، وانتظر الاثنان سقوطها. تهيآ بأكفهما الملتهبة. تزاحما. كل زاحم الآخر كي يضربها.. لكنها عاندت. ظلت تواصل ارتفاعها، تتحدى جحوظ العيون. استذلتهما الوقفة. رنا كل إلى الآخر، ثم عادا ينظران إلى الفضاء المترامي. اختفت تماما. ابتلعها الفضاء. تجمهر

الناس حول الاثنين. سألوا عما يبكيهما. أشار كل بإصبعه إلى أعلى. قال الأول.

- هذا رمى الكرة بقوة فأضاعها.

قال الثاني محتدا:

- أتعبني بالرميات العالية.. حاولت في هذه المرة أن أعامله بأسلوبه..

نظر الناس إلى الفضاء الواسع فلم يجدوا شيئا.. سألوا:

- هل هناك كرة حقا؟

الناس يرنون إلى الفضاء ينتظرون سقوط الكرة، مثل من يتضرع إلى السماء أملا في سقوط قطرات غيث يسقي بها الأرض العطشى.

تحولوا إلى مشهد اللاعبين وهما يحتدان بأصوات عالية لا يسمعونها، لكن حركات الفمين وتقاطيع الوجهين دلتهما على حدة النقاش.. ثمة أشياء مبهمة لا يفهمها الناس. من طبيعة الأشياء أن تسقط على الأرض، وفقا لقانون الجاذبية لنيوتن.. عاندت الكرة الجميع.. تحدت عقولهم.. كما أنهم لا يسمعون أصوات اللاعبين.. اندهشوا..

أما اللاعبان فيبدو أنهما فضا خلافاتهما واتفقا على أن يواصلا اللعب.

من المحتمل أنهما يلعبان الآن بكرة ثانية، لكن الناس لا يريانها. بدآ يتناوبان القذف بالأيدي. ثمة اتفاق تم بينهما على ألا يقذفانها عاليا، وتحلق الناس يتفرجون على اللعبة الجديدة لكرة اليد. يتخيلون مسار الكرة من حركات اللاعبين..

همس أحد المتفرجين إلى الواقف بجواره:

- لعبة ممتعة.. كرة يد بدون كرة..!

قهقهات عالية اهتز لها كرشه المتكرر.. قال الثاني:

- للتخيل متعته.. أليس كذلك؟

ابتسما وهما يتتبعان الكرة غير المرئية..

فجأة، ظهر رجل من الواقفين، يرتدي زي الحكم ويطلق صفارة معلنا انتهاء المباراة، فصفق الحشد الملتف، حين أعلن الحَكَم المزيف انتهاء المباراة بالتعادل، لا غالب ولا مغلوب، وقبل أن ينقطع التصفيق، انتبها إلى بطلي المباراة وهما يرنوان إلى السماء، يتتبعان الكرة الأولى وهي تسقط. يلتقطها أحدهما، بينما يمسك الآخر بالكرة الثانية. الجمهور لا

يرى أيا من الكرتين. انقطع التصفيق فجأة وتعالى صفير الاحتجاج على انتهاء اللعب. صفير متواصل، مطالبين باللعب بالكرة الأولى. وقع من نصب نفسه حكما في حيرة، فاندس وسط الناس معلنا اعتزاله! وطالب من المتفرجين اختيار حكم غيره، لكنهم تمسكوا به واقتادوه إلى الملعب.

بدأ اللاعبان يلعبان بالكرتين معا، بالتبادل، كل يرمي كرة ويستقبل الأخرى في مباراة صعبة أدهشت الواقفين فصمتوا كأن على رءوسهم الطير. نسوا الحَكَم الذي اندس ثانية بينهم، متفرجا مثلهم. ظلا يتتبعان الكرتين، ولا يدرى أي الكرتين هي التي اختفت في السماء ثم عادت!

ظلت الكرتان المختفيتان تروحان وتجيئان بين اللاعبين في رميات مكوكية سريعة. مباراة لا تنتهي، فاللاعبان لا يخطئ أحدهما في رميته أو في استقبال الكرة الثانية. الحَكَم المعتزل ملّ الانتظار. من المفروض أن تنتهي المباراة.. أطلق صفارته.. فصفق المتفرجون واندفعوا يحضنون اللاعبين. همس البعض متسائلا بصوت لا يسمعه أحد: " أين الكرة؟ " .

(أغسطس ٢٠٠١)

حتى لا يكون البلاغ كاذبا

ارتمى على الأرض متظاهرا بالإغماء كما اقترح عليه رجل غريب شهد الواقعة معه. غامت المرئيات في عينيه.. تخشبت أطرافه.. تثلجت. هرب الدم من عروقه، رعبا وفزعا وهلعا. خشي أن تأتي الشرطة ولا تنطلي عليهم الخدعة. لا بد أن يتقن الدور. لأول مرة يمثل.. يخادع.. كان مضطرا.. مجبرا.. لا بد أن يغيب عن عالم الأحياء، يتماوت.. يتقن الدور، وإلا.. لو اكتشفت الخدعة سيقاد إلى السجن، ضحية بلاغ كاذب وخداع السلطة المتمثلة في الشرطة.

الرجل الغريب أصلع الرأس.. جلده في لون البن المحروق، وشاربه كث. يبدو عليه أنه موظف يكفيه راتبه بالكاد. اقترح عليه التظاهر بالإغماء، بديلا للمغمى عليه الذي أبلغ عنه، لكنه أفاق سريعا وجرى كالحصان. قال الموظف الغلبان:

- حين تأتي الشرطة، ستقبض عليك.

سأل، غير متيقن مما سمع:

- تقبض على من؟

- على صاحب البلاغ الكاذب..

تريث قليلا ثم قال مشيرا بإصبعه إليه:

- سيادتك..

قال " سيادته " وقد غار قلبه من الخوف:

- ما العمل؟

- ترتمي على الأرض بدلا منه، وتتظاهر بالإغماء..

وضع يده على بطنه، صارخا متألما، وارتمى على الرصيف، فالتف الناس حوله.

ما زال يسترجع المشورة الخائبة التي أرقدته على ظهره. تشخص إليه العيون.. يسمع الهمهمات والصيحات.. كيف يتراجع؟ ما كان قد كان. يقف الموظف البسيط بجانبه ويحكي للناس ما حدث للمسكين. سأل أحدهم:

- هل طلبت الإسعاف؟

- في الطريق..

جس شاب نبضه، وبشر الواقفين:

- خير يا جماعة.. النبض سليم..

النبض سليم!.. يعني.. يسجن؟ غامت الدنيا في عينيه المقفلتين.. رأى الدنيا محمرة بلون المغيب. يخشى البربشة بعينيه فينكشف أمره. تداخلت الصورة وتاهت المرئيات..

مضت نصف ساعة، ولم تصل سيارة الإسعاف. وهو ممدد على أسفلت الرصيف الساخن، لا يبدي حراكا ولا ينطق حرفا. لا يتنفس هواء ولا تتحرك عضلة!.

حين جاءت سيارة الإسعاف بعد نحو ساعة، حملوه على النقالة جثة هامدة.

قال الموظف الأصلع:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. صاحبي أخذ الحكاية جدا!..

قال أحد الواقفين في عصبية:

- جئتم متأخرين.. المرحوم شبع موتا!

نظر إليه رجل الإسعاف نظرة عتاب. هو غير مقدر لظروف عملهم. ولم يعلق بكلمة واحدة.

انبجست الدموع من عيني الموظف الكليلتين..

سأله رجل الإسعاف:

- أهو أخوك؟

- لا..

أولى المكان ظهره منصرفا، بينما تتحرك سيارة الإسعاف وصوت آلة التنبيه المميزة لها يخرق طبلة أذنه، ولا يملك إلا التلويح بيده إلى رجل الإسعاف حتى بعدت السيارة عن ناظريه. تمتم محدثا نفسه: " مات بصحيح.. لا كان به شيء ولا عليه! " ..

(٢٠٠٢ م)

هو...

تناولت الخطاب في لهفة، واختلت في غرفتها. انكفأت على فراشها وحيدة مع الخطاب. تأملته لحظات وانتشت بمرآه. ظلت تتفحصه وصدرها يزغرد بالفرح ويشدو بالشوق والحنين. إنها تريد أن تنعم بلذة التأمل، وتطيل من سعادتها ونشوتها.. فالخطاب جاءها اليوم بعد أن انتظرته طويلا. كانت تعد الأيام والليالي، وتحسب ساعات الفراق، دون أن تكل أو تتعب.. يحفزها إلى ذلك الأمل وصول خطاب منه.

واليوم وصل الخطاب.. فعادت الفرحة، واستطارها الشوق..

فتحت الخطاب في تأن وقلبها ينبض نبضات مشتاق خائف... فهي في دوامة من الاشتياق والخوف معا. حقا هي مشتاقة إلى كل كلمة في رسالته، لكنها أيضا تخاف أن يكون مقتضب العبارة، فيخيب أملها الذي عاشته بكل مشاعرها.

فضت الرسالة، وراحت في غيبوبة معه، مع الذي أعطته قلبها وعمرها.

" عزيزتي آمال...

قبل كل شيء أعتذر عن تأخري في الكتابة طول هذه المدة، فالوقت لا يسعفني، والموقف ليس بيدي أمره. وإن النجوم لتشهد على أني أختلس لكتابة هذه السطور الوقت المخصص لنومي، فعذرا يا آمال..

عزيزتي...

كم كان بودي لو أظل أكتب حتى يطلع فجر اليوم الجديد، لكنني أضطر إلى إنهاء الرسالة لأشرف على مهام فرقتي، استعدادا لمعركة حاسمة سنخوضها في مطلع الصباح.. وإني أبث هذه الرسالة شوقي وحنيني، كما أحسدها لأن أناملك الرقيقة سوف تلمسها.. لقد قبلت الرسالة عساها تقوم هي بتقبيل أناملك عوضا عني.

أنتِ معي دائما، دائما.. في صحوي ونومي، في نهاري وليلي، في قوتي وضعفي.. أنتِ الروح التي تحمسني للقتال،

وتستثيرني لخوض المعارك.. أنتِ الحياة التي أعيشها، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان نابضة معبرة.

تُرى.. ماذا أنا بالنسبة إليك؟

وإلى اللقاء.. أو ووداعا..

المخلص: سامي أحمد

أشبعت الرسالة تقبيلا، وأعادت قراءتها مرارا.. إلى أن فاجأتها أختها ثريا، فعجبت من أمرها، لم تجد مبررا لأختها في مثل هذا التصرف. نظرت إليها آمال وقالت بصوت حاد:

- إنه حي.. يعيش..

صمتت قليلا.. ثم قالت لأختها:

- أتدرين يا ثريا ما يقوله في الرسالة. إنه يقول: " ترى.. ماذا أنا بالنسبة إليك؟! " . ألا يدري؟.. إنه الحياة.

أحست ثريا بحنان جارف. تجاوبت مع أحاسيسها الرائعة، وشاركتها فرحتها الجنونية بالخطاب:

- أتسمحين لي بقراءة الرسالة؟

أعطتها إياها وظلت تترقب ساهمة كأنها تسألها: "ما رأيك؟!." .. أسهمت قليلا بعد قراءة الرسالة، ثم قالت:

- لكنه لم يشر إلى موعد عودته؟

قالت آمال في انفعال:

- ماذا تريدين منه؟.. أيترك أرض المعركة؟.. تكفيني منه هذه الرسالة، التي طمأنتني على أنه حي، وأنه سيرجع يوما ما.. قد يرجع غدا أو بعد غد.. المهم أن يوما ما سنلتقي.

تركتها وحيدة مع رسالته تعيد قراءتها مرات عديدة، ثم أسرعت إلى صورته التي تحتفظ بها في أحد أدراج دولابها الخاص، وضعتها نصب عينيها واحتضنتها في شوق. ظلت تتأمله في زيه العسكري المهيب، ورأسه ترتفع إلى أعلى في قوة وثبات.. حتى كادت تعتقد أنه لا يقدر على كتابة مثل هذه الرسالة الرقيقة، فملامح الصورة جامدة قوية.. لكن صورة أخرى حية ترتسم في خيالها وتنطبع في ذاكرتها، إنها صورته حين التقت به، وتحدثت معه.. كان حلو الحديث، عذب الصوت. في صوته قوة وثقة، وفيه رقة وعذوبة.. كانت تنجذب إلى حديثه مشدوهة، حتى أنها تتلعثم حين يجيء دورها في الحديث، فيخرجها من ورطتها بابتسامة حانية تعيد لوجهها ماء الحياة.

كان لقاؤهما الأول في نادي الضباط. تبادلا نظرات الإعجاب، وبضع كلمات هامسة، فوجدت فيه الرجل الذي تبحث عنه. ضابط شاب وسيم، فيه رقة الطباع ودماثة الخلق مع قوة العزيمة وثبات المبدأ.. هذه الصفات كلها اجتمعت فيه وكونت منه رجلا تعجب به وتميل إليه. أما هو، فقد كان يختزن لها في أعماقه صورة مضيئة لامرأة متفتحة واعية.

تعددت لقاءاتهما التي تجيء غالبا من تدبيرهما وإصرارهما على اللقاء.. والعجيب أنهما في كل لقاء يتعجبان من المصادفة التي جعلتهما يلتقيان مرة أخرى، والمصادفة مظلومة بينهما، ليس لها يد في حالهما.. هما يتلهفان على اللقاء، ويتدبران أمره.. كأن دنياها تنتهي عند رجل اسمه سامي، ودنياه تنتهي عند امرأة اسمها آمال.

تمت الخطبة بالسرعة التي تبادلا بها الإعجاب. وبدأ الحب يغزو قلبيهما.

تذكر يوم ودعها وذهب إلى الجبهة، بكت في تلك اللحظة بكاء حادا لم تبك مثله من قبل. كادت تفقد وعيها أمامه لولا بعض من الشجاعة.

وذهب.. ذهب ليحارب.. ذهب وفي جيبه مصحف مذهب أعطته له أمه ليتذكرها دائما وهو بعيد عنها، وصورة لآمال احتفظ بها.. يبثها شوقه كلما استبد به الحنين.

مصحف وصورة.. ذهبا معه إلى هناك، وتركها وحيدة مع صورته التي تحتفظ بها في درج دولابها الخاص، تبثها مواجعها كلما حنت إليه واستنفرها الحنين لمرآه. ظلت وحيدة مع صورته، مع أمل وصول خطاب منه كما وعدها.

وتمضي الأيام فتحس بثقلها، كأن بينها وبينه عمرا طويلا يكاد يفرقهما ويخيب أملهما الوضاء في حياة حلوة سعيدة.

فيا لها من فرحة، ويا له من شوق!.. إن آمال التي اكتأب صدرها بثقل أيام الفراق، قد تبدلت وتغيرت تماما. في لحظة حاسمة تغير كل شيء وتبدل، فإذا بالفرحة تعم كيانها وإذا بالشوق يفيض نبضات حية في عروقها.. حدث هذا كله وقتما تسلمت الخطاب من موزع البريد.

داخت وسائد الفراش بالخطاب، واهتاجت له أساريرها. وفي المساء جلست في صمت الليلة تكتب له رسالة طويلة. كتبت كل شيء انتقت كل كلمة حلوة، وعبرت عن كل معنى

رقيق، وبذلت كل ما في وسعها كي تدخل البهجة إلى قلبه، وفي قرارة نفسها إحساس بالزهو والخيلاء لخطيبها، ذلك الضابط الشاب الذي يشارك في صنع غد أفضل ومستقبل أزهى.

لم تكتف بكتابة الرسالة، وإنما طافت بها على أفراد أسرتها وصديقاتها، تطالعها وتسمع الآراء المختلفة فيها.. حين طالعتها لأمها، تعجبت الأم من هذه العاطفة الجياشة التي واتت ابنتها، وأملت عليها هذه الرسالة النابضة بأرق العواطف. الناطقة بأسمى الأحاسيس. قالت لها:

- عجبا!.. لم تتركي للشعراء شيئا يقولونه!!..

وعلقت أختها على الرسالة:

- أتظنين أن الوقت يسمح له بقراءة هذا " العرض حال " الضخم؟

- أعتقد هذا.. لن يترك كلمة واحدة من الرسالة.

وذات ليلة..

رأته في نومها يرتدي بدلة الميدان ويمسك بمدفعه في قوة وصلابة، يحصد به الأعداء فيتساقطون أشلاء، ويبرز هو كالعملاق، تنفصد من جبينه حبات العرق فلا يعبأ بها،

ولا تضجره شدة الحرارة، أو وعورة المنطقة.. ثم إذا بها ترى عجوزا يبدو عليها الإجهاد.. رأتها تقترب منه وتسأله:

" أمعك ماء؟ " ..

فينظر إلى الزجاجة التي معه، فلا يجد فيه إلا النزر اليسير، فيعطيها إياها وهو يأسف:

" آسف يا سيدتي، لا أملك غير هذه الكمية " .

تشرب العجوز الماء، فتشعر براحة وتسترد أنفاسها المجهدة.. وهي تقول:

" أخذت ماءك كله " .

" لا عليك من هذا.. فإن حياتنا رواء لهذه الأرض " .

تزهو آمال بصورته الماثلة، فتناديه، لكنه لا يكاد يسمع هذا النداء، كأنه صادر من بئر عميقة أو من هوة سحيقة. أما هو، فواقف في مكانه يرقب جحافل العدو وهي تتقدم ناحيته، فيأمر جنوده بالتقدم، ثم لا تلبث صورته أن تختفي وتضيع وسط زحف جنود لا تحصي لهم عددا.. ثم سرعان ما تختفي صورة الجنود خلف ستار كثيف من الدخان، الذي يتبدد وتخف حدته فترى الجنود أمام ناظريها أشباحا متحركة.. وفجأة.. ينخلع قلبها لصوت صرخة آلمت أذنيها، فجرت

لاهثة تبحث عن مصدر الصرخة، ثم إذا بها أمام رجل يسقط جريحا. إنه هو.. سقط بطلا شجاعا كعهدها به دائما، سقط والمدفع في يده. جلست بجانبه وبحثت عن موضوع الجرح حائرة لا تدري ماذا تفعل!..

تيقظت من نومها مذعورة. يدها ما زالت ممسكة بالرسالة، لم تتمالك نفسها.. انخرطت في بكاء مر. سقطت قطرات من الدموع على الرسالة، فضيعت معالم بعض حروفها.. وأخذت تسترجع الحلم ثانية في ألم. استبدت بفكرها الهواجس والوساوس. أخذت تردد: " أيمكن أن يحدث شيء من هذا؟!.. " . لكنها أبعدت هذه الوساوس البغيضة، وتلك الهواجس التشاؤمية.

ظل القلق يلازمها منذ هذه الليلة. باتت تترقب عودته في صبر نافد. وتغير الموقف من فرحة جنونية برسالته، إلى ترقب قلق ليوم عودته. أجل.. متى يعود؟!.. هذا السؤال لم يخطر على بالها من قبل، بات يقلقها هذه الأيام، فلا تهنأ بنوم أو يقظة، وتبدلت حالها.. فاكتأب صدرها، واكفهرت ملامحها، ووجف قلبها، وعم كيانها الحزن الصامت. لاحظت ثريا ذلك فقالت:

- هدئي من روعك، إن الأمر لا يستحق منك هذا الحزن.. إنه سيرجع من ساحة القتال بطلا، ويا حظك السعيد الذي سيجعلك زوجة بطل!

لكن آمال لا ترتاح أو تهدأ. لم تستطع الكلمات أن تطيب خاطرها وترجعها إلى سابق عهدها. مشرقة.. فرحة.. سعيدة..

تأزم الموقف بتعاقب الأيام، دون أن يصلها خطاب منه. أصبح كل يوم يجيء خنجرا يؤلم صدرها ويثخنه بالجراح ويدميه بالآلام. فلا استطابت لها حياة، ولا استلذ لها عيش، ولا عرفت طعم الهناء.. ذبلت آمال، تلك الوردة التي أطرى سامي جمالها، واستطاب عطرها.. باتت اليوم وردة ذابلة وكأنها في خريف العمر.. لا جمال، ولا عطر..

خيب موزع البريد أملها، وأضجرتها الأحلام المزعجة في الليل، وأقلقتها الوساوس في النهار.. تحولت أيامها إلى جحيم، وانطوت في غرفتها لا تخرج منها إلا للضرورة، ولم تعد تنتظر موزع البريد أو تفرح لقدومه.. فقدت الأمل في وصول خطاب منه، وباءت بالفشل محاولات أختها ووالديها في تهدئة خاطرها، وتطييبها بالتفاؤل والرجاء.

وفي يوم...

دخلت ثريا غرفتها في فرحة ولهفة، وفي يدها خطـاب لم تتبينه آمال، لكنها أفاقت على صوت أختها الضاحك:

- خطاب منه...

صرخت آمال وهي تلتفت ناحية أختها:

- منه!..

- اختطفت الخطاب وفضـته. قـرأت سـطوره.. وإذا الموقف يتغير تماما، ويشرق محياها، وينبض قلبها المرهف بنبضات حية زاخـرة بالأمـل المتجـدد والحـب العائـد. واستوقفتها عبارته الأخيرة: " ماذا أنا بالنسبة إليك؟!.. " .

وصاحت:

- إنه يعيش.. إنه حي..

- ابتسمت ثريا، وعقبت:

إنه يريد أن تحافظي على العهد وتذكريه حتى يعـود؟.. إنه يقول: " ترى ماذا أنا بالنسبة إليـك؟!.. " . إنهـا نفـس العبارة التي قالها في رسالته الأولى. إنه يريدك أن تذكريـه حتى يعود.

قالت آمال:

- سأظل أذكره دائما، دائما.. إنه حي.. حي.. ألا تدرين قيمة الحياة؟!

- هذه أجمل ذكرى...

وتفتحت الوردة.. فاح عطرها فأسعدت البيت كله، وملأته مرحا وهناء.. لم تفقد أملها في عودته. ورغم أن أحلاما مزعجة تراودها من وقت لآخر.. إلا أنها وطدت العزم على عدم الانصياع لها، فرسالته الثانية قطعت الشك باليقين، وعرفت منها أن الظروف لا تتيح له أن يكتب لها. لكنه أثلج صدرها بما في العودة من بهجة واستقرار.

عاودها الشوق، واستبد بها الحنين...

ظلت تترقب يوم عودته. تحسب ما مضى على فراقه، وتخمن ما تبقى من أيام على لقائه. تفاءلت، وعمر قلبها بالشوق وفاض بالسعادة لكن ثريا فاجأتها ذات يوم بما لم تكن تتوقعه أو تعمل له حسابا. دخلت غرفتها وهي تحاول أن تتجلد وتتماسك. قالت والدموع في عينيها والصوت يكاد يحبس في حلقها:

- لن يجيء...

صعقت آمال وهالها الموقف. نظرت إلى أختها تتيقن – في شبه ذهول من حقيقة ما قالت.. ثم صرخت:

-لا.. لا.. سيجيء.

قالت ثريا في حدة:

- قلت لك لن يجيء، تأكدي.. وأريحي نفسك من هـذه الأحلام.

صمتت...

أخذت تلاحظ حال أختها، ثم قالت في حنان جارف:

- لن يجيء.. ولكن!.. هو الحياة يا أختي.

ارتمت في حضن أختها، والدموع تفيض من عينيها.

* * *

بدأت تفكر في أن تصنع شيئا من أجل الحياة.. لا بد أن تعمل.. لا بد.. لابد أن تتفانى في عمل ما!

اشتغلت بالصحافة، وصورته لا تفارق مخيلتها أبدا...

مجلة " الأديب " – بيروت

مارس ١٩٦٩

حدث في مملكة الحيوان

أصاب الأسد ملل ورتابة من البرنامج اليومي المعتاد. أخذ يتمطى داخل القفص الحديدي، وما يشكو من إجهاد أو ضيم، إنما شكواه المرة تكمن في هذه القضبان الحديدية الطويلة. ومثله كان الأجدر به أن يستلذ هذه الراحة، ويخلد إليها، سيما وأن شمس الشتاء الدافئة تأتيه من بين القضبان، كما أن رجلا يتزيى بزي خاص، يأتيه في الظهيرة بكمية كبيرة من اللحوم، فيلتهمها عن آخرها. أحيانا يلذ له أن يستبقي جزء من نصيبه، دلالة الشبع. حياة تتسم بالراحة وخلوها من المنغصات، فيما عدا لبؤته التي تناوشه من قفصها الداخلي. وحين يفتح الباب، تتدلل عليه، فيزمجر ويزأر زئيرا فيه من الشدة أخفها، فتلين عريكة اللبؤة، وترضخ لمطالب الأسد، بعد أن أغوته وأحسنت استعمال سلاح الإغراء. وفيما عدا ذلك، فحياة الأسد رتيبة لأقصى حد.

فكر ذات نهار أن يرفض اللحوم، ويعلن إضرابه عن الطعام وهي عقوبة صارمة يستطيع فرضها على حراسه. يتمنى لو أن حارسه نسي إحضار اللحوم، أو أيا من المأكولات المألوفة. طبعا سيتضايق، ويتملك منه الغيظ، وتناوشه أفكار مقلقة. وقد يتوعد الحارس وعيدا صارما، أو يفتك به جزاء وفاقا. ربما في هذا ما يكسر حد الملالة الذي انتهى إليها.

يتمنى الأسد وهو في عرينه الضيق المحاصر، أن يطلق عهد الراحة والدعة والسكينة. ويعيد تلك الحياة الحلوة التي عاشها في سني حياته الأولى في أحراش أفريقيا، حيث كان يستشعر لذة الكفاح من أجل صيد ثمين، أو من أجل إنقاذ حيوانات الغابة، ويباهي الكل بقوته وسيطرته، فإذا بهم جميعا راضخين راكعين.

لكن شيئا من هذا لم يحدث منذ زمان طويل. يبدو أنه أحيل إلى الاستيداع، ترقبا للحظة الاحتضار، ما رقدته هذه إلا نوع سيئ من أنواع الموت المقسي بالعذاب.

أغفى إغفاءه الظهيرة، مسترخيا، فإذا به يجول في عالم الأحلام.. وتتراءى له حديقة الحيوان خلوا من بني البشر.

وزفت إليه لبؤته خبرا مؤداه أن حراس الحديقة وموظفيها أضربوا عن العمل. وكانت حجتهم في هذا أن الحيوانات تأكل من أطايب الطعام ما لا يأكلون، وتستريح من عناء الحياة وتهنأ في أقفاصها، غير محملة بأعباء المعيشة التي ترتفع نفقاتها. كما أن هذه الحيوانات لا تنحشر في المواصلات، ولا يطلب منها دفع أي مبالغ بصفة مقدم إيجار أو خلو رجل، نظير إقامتها في حظائرها وأقفاصها.. كما أن هذه الحيوانات بلا استثناء تحظى بالرعاية الطبية المجانية.

وكانت فرصة متاحة للثعلب أن يمارس نشاطا غير عادي، فيعقد اجتماعات مختلفة مع جميع فصائل الحيوانات والطيور على السواء، مطالبا بعدم الاعتماد على البشر.. ونادى بأن تكون لهم قوة حيوانية مؤثرة.

حظيت دعوة الثعلب بتأييد مطلق.. واتجهت الأنظار جميعا إلى الأسد، ليعود لمجده القديم، فيتوج ملكا على الحديقة، وتكفيه حنكته القديمة كملك غابة من أضخم غابات أفريقيا. أذعن الأسد لطلبات كافة فصائل الحيوان والطير، ولكنه أفهمهم بأنه لن يستبد بالسلطة والسلطان. سيقوم بتوزيع

الاختصاصات، حتى تسير أمور الحياة على خير وجه. على أنه بعد أن شرح لهم سياسته، رشح الثعلب نائبا له في المملكة الجديدة. وعن له خاطر بأنه تسرع في الاختيار، ولكن ما حيلته وقد ألفى الثعلب قبالته بارزا متألقا؟ ربما يكون القرد الخفيف الحركة الجم النشاط أكفأ لشغل المنصب، لكنه تضايق من القرد، حين ألفاه أثناء حديثه واقفا في المؤخرة متسليا بتقشير حبات الفول السوداني ومضغها، بحركات قريبة الشبه بحركات الإنسان.. فكيف يختاره نائبا له، وهو بصدد تأسيس مملكة تناهض ممالك البشر؟ كما أن الثعلب نجح بدهائه في إطراء سطوة الأسد، ووقف عن يمينه طوال حديثه الشهير. وما كان من الثعلب إلا أن شكر الأسد على ثقته الغالية، ودعا الله أن يوفقه في تسيير أمور المملكة، وترجمة وجهات نظر الملك المتوج إلى أعمال بناءة.. وأعلن للجميع أن المطلب الأساسي لملح هو توفير الغذاء في مواعيده. فعهد إلى الطاووس بتنظيم مواعيد الوجبات، وتحديد نوعياتها.. على أن يكون ذلك عملا منظما مدرجا في كشوف واجبة التنفيذ من قبل الحمار.. فأطلق الحمار نهيقا عاليا. فاعتبر الجميع هذا النهيق دليل الموافقة. وضحكوا

معجبين بمبادرة الحمار السريعة، واستعداده الفوري لتحمل أعباء وظيفته الجديدة.

عهد إلى النمر العجوز بتكوين فصائل دفاعية من صغار النمور، تحمي الحيوانات من أي خطر خارجي. كما عهد إلى الحمام باستكشاف المنطقة، والتنبيه ضد أي تحركات غير عادية.. وهكذا ظل الثعلب يوزع الاختصاصات والمسئوليات، وسط استحسان الأسد وتأييده.

ما إن انفض الاجتماع، وعرف كل حيوان عمله المكلف به، حتى جال الحمار في طرقات الحديقة، مباهيا الجميع بعمله الجديد، مؤكدا لهم أن توزيع الوجبات، من المهام الثقال التي أنيط له القيام بها. قال للذئب:

- تخيل أيها الذئب القوي، لو تأخر الطعام عنك ساعة واحدة. إن تباطئي أو تأخيري سيحرم الجميع من الأكل.

قال الذئب متوعدا:

- لو تأخر عني الطعام دقيقة واحدة، أذيقك من شروري ما لم تذقه طول حياتك.

أحنى الحمار رأسه، وهز أذنيه الطويلين، وقال في إذعان:

- لن يحدث هذا.. مجرد افتراض.

وبعد أن فرغ الطاووس من إعداد قوائم الوجبات، وخص كل حيوان نصيبه وما يناسبه من مأكولات، أعطى القوائم الحمار، ليتولى مهمة التوزيع. وانتظر الحمار عربة المأكولات، وما إن وصلت، حتى قام بجرها في طرقات الحديقة.

أما القوائم التي أعدها الطاووس، فقد حاكى فيها ما يفعله بنو البشر في التنسيق والتبويب.. سطر جدولا، وجعل الخانة الأولى للمسلسل، والثانية لاسم الحيوان، والثالثة لنوع الطعام المخصص له في مختلف الأوقات، والرابعة للكمية من كل نوع.. وقد راعى في ذلك تسهيل مهمة الحمار، الذي سيجوب الحديقة ثلاث مرات يوميا. أحس الحمار بأهميته وهو يجر عربة المأكولات. كما ازداد تيها بالقوائم المنسقة، فوضعها في مكان بارز عند مقدمة العربة، بحيث تراها كافة الحيوانات، عساهم يحسنون الظن به، ويغيرون الفكرة السيئة التي أشاعوها عنه بأنه بطيء الفهم.

أسرع الخطى صوب عرين الأسد، وحياه بالتحية المناسبة، والنهيق المتواصل، وانحناء الرأس، وهز الأذنين.. تعبيرا عن الاحترام والتبجيل.

ونظر في القائمة، نظرة قارئ شغوف بما يقرأ. وأطال النظر، مشعرا الأسد، الملك المتوج حديثا، بأهمية عمله ودقته.. ثم التقط كيسا مملوءا بحبات الفول السوداني، وأفرغه عند قدمي الأسد!.. ثم تناول خمسة أصابع موز، ووضعها بجوار الفول!.. دهش الأسد! بينا الحمار يحني رأسه محييا، ويطلق نهيقا قصيرا تحية للأسد المبجل.. وما إن هم بجر عربته منصرفا، حتى زأر الأسد زئيره المخيف، فزلزل الأرض من تحت قدمي الحمار، وارتعد جسمه كله.. فترك العربة، وامتثل قبالته.

قال الأسد في غضب:

- ما هذا الطعام أيها الحمار المعتوه؟
- فول سوداني.. وموز.
- أعرف..
- عفوا.. يا ملك الحيوانات. أعرف أنك تعرف..
- ألا تعرف أني أسد؟

- بلى. أعرف جيدا إنك أسد. ومن يتجاهل قدرتك وأنت مليكنا؟

- فماذا هذا الطعام؟

- هكذا قرأت طعامك في القائمة...

- اقرأ جيدا.. وأد عملك كما ينبغي..

أعاد الحمار قراءة القائمة، ثم نظر إلى الأسد نظرة عتاب، ونهق نهيقا قصيرا.

وقال في ثقة:

- هكذا قرأت في القائمة.

ازداد غضب الأسد، وزأر من جديد، ثم قال في حدة:

- أرني القائمة..

أعطاه إياها وهو يرتجف. وبنظرة سريعة فهم الأسد ما كتب، فأعادها قائلا للحمار:

- يا أبله.. هذا خطأ كتابي.. أدرجت وجبة القرد في الخانة المخصصة لوجبتي، كذا أدرجت وجبتي في الخانة المخصصة لوجبة القرد.. هذا كل ما في الأمر.. كان ينبغي أن تفطن إلى هذا الخطأ الكتابي غير المقصود.

- كل الاحترام والتقدير لملكنا المبجل.. عفوا.. فليس من اختصاصي مراجعة ما كتب.. فأنت تعلم أن الطاووس هو كاتب القائمة، وراجعها من بعده الهدهد.. وذيل كل منهما القائمة بتوقيعه، ثم اعتمدها الثعلب.. هذا يشبه ما يفعله البشر.. وليس لي الحق في تصحيح القائمة.. مهام وظيفتي هي توزيع الطعام كما هو مكتوب، وليس من اختصاصي التعديل أو التصحيح، كما تعلمون.

زأر الأسد زئيرا مخيفا. وقال:

- صدق من أسماك حمارا...

- أنا حائر بين أمرين، أحلاهما مر.. إذا أرضيتك، فسوف ألقى اللوم والعقاب من الثعلب، لأني تخطيت اختصاص عملي. وإذا نفذت ما هو مكتوب، فلعناتك من نصيبي.. أعرف أنك أسد. لكن الطعام المخصص لك هو الفول السوداني والموز. لك أن تراجع في هذا نائبك، وهو ذو حظوة عندك.. أما أنا، فعملي بسيط، ويجب علي تأديته بدقة وإتقان.

ثم نهق نهيقا متواصلا وطويلا، دلالة على إخلاصه في العمل، ثم جر العربة ومضى سريعا إلى القرد، فحياه تحية

سريعة وهو ينظر إلى القائمة، ثم ألقى بكميات كبيرة من اللحوم بجانبه، أكواما وراء أكوام، حتى شكلت اللحوم المتكومة ما يناهز خمسة أضعاف حجم القرد أو يزيد.

ضحك القرد ضحكات طويلة، وأخذ يتشقلب، ويقفز من مكان لآخر ثم قال للحمار:

- هذا طعام الملك.. ألا تعرف أني قرد؟
- أعرف أنك قرد.. لكن بالقائمة خطأ كتابيا
- إذن، يصحح هذا الخطأ ال.. " كتابي " ..

وبعد أن أطلق قهقهة قصيرة، قال متهكما..

- منذ شكلت مملكة الحيوانات، ونحن نسمع كل يوم كلمات جديدة.. وكلمة " كتابي " غير مألوفة عندنا نحن القرود..

- لا يمكن التصحيح، فالقائمة ممهورة بتوقيعي الطاووس والهدهد.. ثم الثعلب.. فهل في مقدوري أن أجري تعديلا بدون إذن من رؤسائي؟

- إذن!.. خذ الإذن.. وكلمة " إذن " غير مألوفة أيضا. صرنا نتكلم أكثر مما نعمل، ويحق لنا أن نسمي مملكتنا مملكة الكلام.

- إذا ذهبت لأخذ الإذن، سيكون موعد الغداء قد فات.. ويوقع علي الجزاء لعدم قيامي بعملي كما ينبغي.

- الجزاء!.. ما كل هذه الكلمات المعقدة التي تلاحقني بها.

- إنه " روتين " !..

- وهذه كلمة تستعصي على الفهم.

- العمل واجب مقدس.

- من أين جئتم بكل هذه الشعارات؟

-....

- أنا لا أطمع في شيء سوى حبات قليلة من الفول السوداني، وقليل من أصابع الموز.

- أعطني من نصيب أي حيوان آخر، وديا.. وينتهي الإشكال.

- لا أستطيع.

وأطلق الحمار نهيقه المتواصل قبل أن ينصرف. ثم أكمل توزيع الوجبات طبقا للائحة.

انقضى النهار، والأسد في حالة غيظ شديد، وأمامه الفول السوداني والموز، فهرسهما بقدميه، وقذفهما خارج القفص. أما القرد، فقد استغل أكوام اللحم العالية ليمارس فوقها ألعابه البهلوانية.

وفي اليوم التالي، استدعى الأسد الثعلب، وشرح له الموقف.. فقال الثعلب:

- أنت تعرف منطق الحمار. سأقوم بتصحيح الوضع تفاديا لحدوث أمثال هذه التفاهات في المستقبل.

وعقد الثعلب اجتماعا سريا مع الطاووس والهدهد. وكان الموضوع الذي ناقشوه، هو ما حدث من الحمار.

واستطاع الثعلب بدهائه أن يكسب تأييد الاثنين إلى جانبه، إنصافا وتقديرا لموقف الحمار الذي احترم توقيع الثلاثة على قائمة الطعام.

نودي الحمار، وكافئوه ببردعة مزركشة غطوا بها ظهره، لتقيه وطأة الحر..

ولما علم الأسد، زأر زئيره المعتاد، وصرخ في حدة:

- هذه مهزلة أيها الثعلب الداهية.. أتكافئ الحمار على فعلته الساذجة؟

وعاد يزأر من جديد، غاضبا متوعدا الجميع.....

أفاق من إغفاءة الظهيرة، فإذا به راقد مستكين داخل القفص الحديدي.. وحمد الله أن ما حدث كان حلما من أحلام الظهيرة بعد أن امتلأت معدته باللحوم، فنهض، وجال في أركان القفص، مترحما على أيام زمان!.. وقتما كان ملكا على الحيوانات، متلذذا بصيد فريسة لطعام يومه، يأكل منها ما يشتهيه، تاركا الفضلات للحيوانات الصغيرة تتصارع من أجلها.

مجلة " البيان " – الكويت –

مارس – ١٩٨٠ م